مقدمة

(*)

في أدب العراق القديم

الأستاذ طه باقر

حوار أدبي قبل أربعة الآف عام :

elima ina eli Tillàni labirüti italalk
amur gulgullete arbüti û pànüti
ayyü bél limutti - ma ayyü bèl usàti

(اعلُ فوق الاطلال القديمة وتمشّ عليها وانظر الى جماجم المتأخرين والماضين ، فأيهم الاشرار وأيهم الصالحون ؟)

* * *

هذه الابيات التي اوردنا نصها بلفظها في اللغة البابلية بالحروف اللاتينية وترجمتها العربية جزء من قصيدة وضعت على هيئة حوار (dialogue) تهكمي فلسفي بين سيد وعبده عاشا قبل « هوميروس » وغيره من شعراء العالم القديم المشهورين بعشرات القرون في احدى تلك المدن القديمة التي شيدت في سهول وادي الرافدين وازدهرت في آدابها وفنونها ومعارفها قبل أن تظهر الى الوجود أثينة وروما بقرون كثيرة . ومع أن تلك المدن القديمة لم يبق منها الآن سوى رسومها الممثلة بهذه الالوف الكثيرة من الاطلال الدارسة المنتشرة في ربوع العراق ، بيد أنها تحدت فناء الزمن وتسامت على قول الشاعر الامريكي

(*) من بحث يعده المؤلف للنشر

« لونگ فيلو » (Longfellow) لانها تركت وراءها اكثر من « آثار اقدام لها على رمال الزمن » . اجل إنها خلفت من بعدها تراث « الكلمة المدونة » والكلمة المدونة كانت ولا تزال جوهر الانسانية وفكرها الذي يميزها عن المملكة الحيوانية . واذا كانت « الكلمة » ، وهي سر الوجود واصل الوجود ، قد كانت منذ البدء ، وجدت منذ ان وجد الانسان وميزته عن سائر المخلوقات فان معجزة تدوين الكلمة قد تحققت في وادى الرافدين لاول مرة في مسيرة الانسان المضنية عبر العصور المتطاولة ؛ وعندئذ انتقلت البشرية من ظلام « أميتها » التي استغرقت نحو تسعة وتسعين بالمائة من عمر الانسان على هذه الارض قبل نحو مليوني عام ، وسرعان ما تطورت الكلمة المدونة في حضارة وادي الرافدين فصارت أدباً وتأريخاً وعلماً . وعندئذ شرعت طاقات الفكر الانساني وابداعه تتفتح وتزدهر ، والتجارب والخبرات البشرية تتراكم وتتوارثها الاجيال عن طريق الكلمة المدونة التي لولا ظهورها في حضارة وادي الرافدين لما ازدهرت أثينة وروما وغيرهما من مراكز الحضارات البشرية في علومها وآدابها وفلسفتها .

وشاءت الصدفة الحسنة ان لا يجد كتبة العراق القديم أيسر وأسهل من « الطين » يدونون فيه الكلمة اي الفكر . فالطين ، بخلاف سائر مواد الكتابة التي استعملتها الحضارات الأخرى ، لا يفنى . إنه « طين العراق الخالد » الذي حفظ لنا اولى تجارب رائدة في تاريخ البشرية حققها العراقيون القدامى يوم انتقلوا الى طور الحضارة والمدنية ، وهي التجربة المثيرة في تأريخ تطور الانسان المديد والتي ماتزال البشرية تعيشها وتعانيها بخيرها وشرها .

ميزات أدب العراق القديم وخصائصه العامة :

قبل أن نتناول بالوصف أشهر القطع الأدبية التي وصلت الينا من أدباء العراق القديم ، نمهد لذلك بايراد بعض الملاحظات التوضيحية عن خصائصه وميزاته العامة لفهم التراث الأدبي من حضارة وادي الرافدين :

١ــ قدم أدب العراق القديم :

ونبدأ من هذه الخصائص العامة بالبرهنة على أن أدب حضارة وادي الرافدين اقدم أدب ابتدعه الانسان على ما اجمع عليه الباحثون في تأريخ الحضارات القديمة فكان اولى المحاولات في تأريخ الانسانية للتعبير عن الحياة وقيمها ومعانيها باسلوب الفن الادبي . ولكي لايكون هذا الرأي من قبيل ارسال القول على عواهنه ينبغي الا نكتفي بمجرد الاستشهاد باجماع الباحثين ، بل ندلل على ذلك بانتهاج الاسلوب التأريخي العلمي بان نقارن مابين زمن ادب وادي الرافدين وبين ازمان آداب الحضارات القديمة الأخرى . وموجز ما يقال في الامر إنه على الرغم من ان الزمن الذي دونت فيه اشهر النصوص الادبية في حضارة وادي الرافدين لايتجاوز اواخر الألف الثالث واوائل الألف الثاني ق.م الا ان تلك النصوص الادبية قد تم ابداعها وانتاجها في ازمان اقدم من عهود تدوينها وقد تناقلتها الاجيال المتعاقبة بالرواية الشفهية فوقع فيها الكثير من التطور الى ان بدأ القوم يدونونها في الواح الطين باشكالها النهائية الأخيرة التي جاءت فيها الينا منذ مطلع الألف الثاني ق.م .

فاذا قارنا قدم هذا الادب ، سواء كان ذلك من ناحية زمن ابداعه ام زمن تدوينه ، باقدم آداب انتجتها الحضارات القديمة وجدناه يسبق جميع ما انتجه

الفكر البشري بعشرات القرون . فبالمقارنة مع حضارة مصر القديمة مثلا لما ايأتنا شيء من ادبها من عصر ازدهارها في العصر المسمى في تأريخ حضارة وادي النيل بعصر الاهرام (مطلع الألف الثالث ق.م) . وخلف الكنعانيون ، وكانوا من أشهر واكبر الاقوام السامية التي استوطنت الاقسام الساحلية من بلاد الشام ، نتاجاً أدبياً مهماً يرقى زمنه الى منتصف الألف الثاني ق.م كما اظهرت ذلك الاكتشافات الآثارية الحديثة في المستوطن الكنعاني القديم المسمى « اوغاريت » (راس الشمرا) الآن بالقرب من اللاذقية (١) ، أي أن زمن هذا الادب الكنعاني متأخر بالنسبة الى ادب حضارة وادي الرافدين بما لايقل عن خمسة قرون . ونأخذ الادب العبراني على سبيل المقارنة حيث لايتعدى زمن اقدم نتاج له ، ممثلا باسفار التوراة ، القرن السادس ق.م ، أي انه متأخر عن عهد أدب العراق القديم بعشرات القرون . ونسوق للمقارنة أيضاً اقدم أدب انتجته الحضارة الاغريقية ، ممثلا بالاوديسة والالياذة المنسوبتين الى هوميروس اللتين لايتجاوز زمن تدوينهما القرن السابع او الثامن ق.م على اكثر تقدير . ومثل هذا يقال عن اقدم أدب خلفته الهند القديمة ، وهي نصوص الـ « ركث فيـــدا » (rigvida)وأدب ايران القديم الذي تمثله الـ « افستا » (أبستاق avesta) .

وسيتضح من الامثلة التي سنوردها عن النصوص الادبية انه على الرغم من سبق هذا الأدب جميع الآداب العالمية المشهورة التي عددناها ، فانه لمما يثير الدهشة

(١) حول النتائج الباهرة التي اظهرتها التنقيبات الأثرية الفرنسية في (اوغاريت) منذ عام ١٩٢٨ راجع ايجاز ذلك في كتابي « مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة . (الجزء الثاني ١٩٥٦) الى ص ٢٦ فما بعد ، وكذلك :

C. Schaeffer, Ugaritica , 111, (1956 ' acta Oriontalia, (1955)
Viralleaud , palais Royale d'Ugarit , (1957) ;

وعن نصوص الادب الكنعاني :

Pritchand (ed.), Ancient Near Eastern Texts , (1969)

لدى الباحث الحديث ان يجد ذلك الأدب الموغل في القدم يتميز بالمقومات الاساسية التي تميز الآداب العالمية الشهيرة ، سواء كان ذلك من ناحية الاسلوب وطرق التعبير أم من ناحية الموضوع والمحتوى والصور الفنية المعبرة ، والاصالة والجرأة وخطورة الموضوعات التي تناولها .

٢ــ وبالاضافة الى ميزة القدم التي بيناها فان ادب حضارة وادي الرافدين يتميز على الآداب القديمة بخاصية أخرى مهمة ، تلك هي ان معظم تلك الآداب القديمة قد طرأ عليه الكثير من التحوير والتبديل والحذف او الاضافة على أيدي النساخ والجامعين والشراح ، في حين ان الادب السومري والبابلي قد جاء الينا بهيئته الاصلية غير محور كما دون باقلام الكتبة على الواح الطين قبل نحو ٤٠٠٠ عام(١) وهي الالواح المدونة بالخط الذي اطلق عليه مصطلح الخط المسماري (Cuneiform) .

ومن الطريف ذكره بهذا الصدد انه مع هذا القدم الموغل في الزمن فان ادباء العراق القديم عدوا أنفسهم حديثي العهد في الحضارة وأنهم ورثة ماض مجيد متقادم العهد ، تخيلوه على هيئة « عصر ذهبي » كان السلام والخير يسودان الأرض فيه « فلا خوف ولا حزن ولا بغضاء ولا حيوانات مفترسة تنازع الانسان البقاء . وكان البشر بلسان واحد يمجدون الاله انليل » ، كما جاء ذلك في احدى الاساطير السومرية (٢) . ولا يخفى ان هذه الفكرة التي تصور عهداً متخيلا كان البشر فيه أسعد من عصرهم الراهن قد انتشرت في كثير من الاقوام على هيئة « الماضي الذهبي » ولم تتمكن فكرة « التقدم » من الانتشار إلا في العصور الحديثة ، وما يزال الكثير من اهل العصر الحاضر من يتصور وجود ذلك « الماضي الذهبي »

---

(١) انظر : S.N. Kramer, Sunmerian Mythology,(1944)
وعن الخط المسماري واصله وحل رموزه راجع كتابي : « مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة الجزء الأول » الطبعة الثالثة (١٩٧٣) .

(٢) راجع : S.N. Kramer, IBID.

٣- نسبة النصوص الادبية في مجاميع الواح الطين المكتشفة :-

اذا كانت مصادرنا عن أدب العراق القديم النصوص الاصلية المدونة بالخط المسماري في الواح الطين . فما مقدار الالواح المنقوشة بالنصوص الادبية بالنسبة الى عدد ماجاء الينا من الواح الطين التي اكتشفت في بقايا المدن القديمة ؟ وما المقصود في مصطلح النصوص أو الالواح الادبية ؟ وللاجابة على هذا السؤال بوجه الايجاز نقول : إن ما استخرج من الواح الطين المختلفة النصوص الى هذا اليوم يبلغ مئات الالوف ، وقد يناهز المليون لوح مما هو موزع الآن في المتاحف العالمية الشهيرة .على ان هذا العدد ، على كثرته ، لايؤلف في الواقع الا نسبة غير كبيرة مما مايزال مطمورا في الاطلال القديمة المنتشرة في شتى ربوع العراق وفي بعض الاقطار المجاورة التي اقتبست حضاراتها القديمة الخط المسماري في تدوين لغاتها ومعه الكثير من التراث الأدبي والفني من حضارة وادي الرافدين . أما تخمين نسبة الالواح المدونة بالنصوص الادبية الى عدد ما ذكرناه من مجموع ما جاء الينا من الواح الطين المختلفة فهي نسبة قليلة لا يتجاوز عددها بضعة الآف ، لعله ما بين ثلاثة الى اربعة الاف لوح . ولكن لايمكن التكهن عما سيكشف عنه المستقبل من نصوص ادبية أخرى قد تغير أوتضيف الى معرفتنا الراهنة بادب العراق القديم اشياء كثيرة . ولكن مع ذلك يمكن القول بوجه عام ان ما كشف عنه وتم درسه ونشره من نصوص أدبية لحد الآن يعبر عن المعدل العام او الصورة العامة لنصوص هذا الادب من حيث المواضيع التي تناولها وخصائصه ومقوماته العامة المميزة .

ومع انه يمكن اجمال ما نقصده بالالواح الادبية بانها النصوص الكتابية التي لاتتعلق بتدوين شؤون الحياة الاعتيادية كالمعاملات التجارية والقانونية والرسائل والشؤون الادارية ، وان كل ماعدا مثل هذه النصوص الاعتيادية يدخل في صنف

النصوص الادبية ـ نقول مع ذلك إن هذا تعريف مبهم او سالب فينبغي لنا ان نضيف الى ذلك ان اعتبارنا لهذا الصنف من الواح الطين على انه نصوص أدبية يستند الى المفاهيم المتعارف عليها في الادب ، من ناحية اسلوب التأليف اللغوي كوسيلة للتعبير الفني بنقل التجارب والصور والخبرات والاحاسيس الى القارئ او السامع الى غير ذلك من الخصائص التي يتصف بها النتاج الادبي في جميع العصور . وفي الوسع ايجاز ذلك في ثلاثة أمور :

أـ الموضوع او الفكرة التي تعبر عنها القطعة الادبية .

ب ـ الاسلوب الادبي الفني ، سواء كان شعراً أم نثراً ، المتصف بطراز خاص من النظم والتأليف المؤثر في مشاعر القارئ او السامع .

جـ ـ اختيار المواقف والحوادث المؤثرة بالنسبة الى مفاهيم الحضارة التي انتجت الأدب المبحوث فيه. وسيتضح مما سنذكره من النصوص الأدبية من حضارة وادي الرافدين انطباق هذه المقاييس الأدبية المتعارف عليها .

٤ـ الازدواج اللغوي في أدب حضارة وادي الرافدين :ـ

ومن الملاحظات المهمة التي يجدر ذكرها في هذه المقدمة لفهم أدب العراق القديم أمر يتعلق باللغة التي دون بها هذا الادب . فمن الحقائق التأريخية المعروفة عن حضارة وادي الرافدين انها كانت من الناحية اللغوية مزدوجة اللغة او ثنائية اللغة (bilingual) (*) حيث اللغتان المشهورتان : اللغة السومرية واللغة الاكدية (اي البابلية ، وهي الفرع الشرقي من عائلة اللغات السامية) (*) فاللغة الأولى ، أي السومرية ، كانت لغة السومريين الذين لانعرف عن أصلهم ومهدهم أشياء مؤكدة سوى انهم ليسوا من الساميين ولغتهم ليست من عائلة اللغات

(*) راجع ايجاز هذا الموضوع المهم في كتابي : « مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة » الجزء الأول (الطبعة الثالثة ١٩٧٣) وفيه الاشارات الى الدراسات والبحوث المختلفة عن الموضوع .

كتابخانه
مؤسسه كتاب شناسي

السامية ولا من عائلة اللغات « الهندية ــ الاوربية » . وكانت السومرية ، منذ ظهور التدوين اي الكتابة في اواخر الألف الرابع ق.م ، اللغة السائدة في التدوين على الرغم من وجود الساميين في بلاد وادي الرافدين جنباً الى جنب مع السومريين منذ بداية الاستيطان البشري في السهل الرسوبي في مطلع الألف الخامس ق.م وكان الطابع الثقافي المميز في الادوار الأولى القديمة من حضارة وادي الرافدين الثقافة السومرية بلغتها وأدبها ومعارفها المختلفة . ولكن سرعان مابرز كيان الساميين ولغتهم في التدوين بشكلها الاكدي في عهد السلالة الأكدية السامية (٢٣٧٠ ــ ٢٢٣٠ ق.م) التي اسسها سرجون الأكدي الشهير . وتزايد اتساع التدوين بها والتكلم بها حتى طغت عـــلى اللغة السومرية منذ مطلع الألف الثاني ق.م ؛ وساد الساميون في الحياة السياسية ايضاً . ولكن مع زوال السومريين من الحياة السياسية منذ الألف الثاني ظلت لغتهم ، مثل اللاتينية في اوربة ، لغة ثقافية اساسية ، كما بقيت الثقافة السومرية حية ، واستمر التدوين باللغة السومرية جنباً الى جنب مع اللغة الأكدية (بفرعيها الاساسيين البابلية والاشورية) الى آخر عهود حضارة وادي الرافدين .

واستتبع عن هذا الازدواج اللغوي في حضارة وادي الرافدين نتائج ثقافية ولغوية وكتابية كثيرة لامجال لذكرها ، فيكفي أن نقول من ناحية موضوعنا إنه لايمكن فهم النصوص الادبية في هذه الحضارة مالم يؤخذ في الحساب هذا الازدواج اللغوي ، سواء كان ذلك من ناحية ترجمة الكثير من القطع الادبية السومرية الى اللغة البابلية ، ام من ناحية تأثر النتاج الأدبي البابلي باصول سومرية أم من حيث استعمال الكثير من المصطلحات الكتابية السومرية في القطع الأدبية البابلية ، وتأثر هذه القطع بالاساليب اللغوية الأدبية السومرية . وان هذا يصدق بوجه عام على جميع النصوص الكتابية الأخرى التي خلفتها حضارة وادي الرافدين .

٥ ــ تحملناالحقيقة السالفة على ذكر ملاحظة اخرى تتعلق بمدى تفهمنا نحن أبناء الازمان الحديثة للنصوص الادبية التي جاءتنا مــن حضارة وادي الرافدين عن طريق ترجمتها مــن جانب المختصين الى اللغات الحديثة . فممــا يقــال بهذا الصدد إنه على الرغم مــن ان فهم الباحثين المختصين باللغتين السومرية والبابلية لنصوص هذاالادب مستند الى اسس علمية لايرقى اليهاالشك من بعد حل رموز الخط المسماري وان هؤلاء المختصين متفقون على ترجمة النصوص الادبية باستثناء اختلافات واجتهادات كثير منها غير جوهري ــ نقول مع كل ذلك ومهما بلغت ترجمة هؤلاء الباحثين من دقة الاداء فانها لاتستطيع ان تنقل لنا الروح الاصلية والمناخ الفكري والعاطفي المميز لتلك النصوص ، شأنها في ذلك شأن الآداب العالمية الأخرى اذا ما نقلت من لغاتها الأصلية الى لغة أخرى ، لاسيما في حالة نتاج أدبي مثل ادب حضارة وادي الرافدين تبعدنا عنه الآف السنين . ولعله يمكن القول بهذا الصدد إن نقل النصوص الادبية البابلية الى اللغة العربية يخفف جانباً كبيراً من تلك العقبة . فاللغة العربية اليق اللغات في التعبير الدقيق عن هذا النصوص لانها أخت اللغة البابلية ؛ فكلتاهما من عائلة لغوية واحدة هــي عائلة اللغات الساميــة المتشابهة في تراكيبها اللغوية ومعاني مفرداتها ولفظها ، ناهيك عن التشابه القومي ما بين العرب وبين الاقوام السامية .

٦ ــ تراث أدب العراق القديم في الحضارات الأخرى :

بالاضافة الى ميزة القدم التي نوهنا بها عن ادب العراق القديم وانه يسبق اقدم أدب عرفه الانسان ، فان لهذا الادب أهمية خاصة في تأريخ تطور الحضارات البشرية والفكر الانساني بوجه خاص ، تلك هي إجماع مؤرخي الحضارة على

عظم التراث الذي خلفه ذلك الأدب في الحضارات القديمة الأخرى والثقافات المعاصرة . فهو على ذلك لايقتصر على كونه أدباً قديماً مثل دوره في تطور الفكر البشري ومات ، بل انه لايزال حياً عن طريق التأثيرات التي خلفها في آداب الحضارات التالية .

واذا كان يتعذر الاستشهاد بالعناصر الحضارية الكثيرة التي انتقلت من حضارة العراق القديم الى الحضارات الأخرى — ولعل القارئ سيقف على طائفة من هذه هذه التأثيرات في اثناء تصفحه النصوص الادبية التي سنعرضها — نقول اذا تعذر ذلك فنكتفي من الموضوع بذكر الاسس المعتمدة في منهج البحث التأريخي فيما يتعلق باقتباسات الحضارات بعضها من بعض ، وقد استطاع الباحثون بانتهاجها البرهنة على الحقيقة التي ذكرناها ؛ ويمكن ايجازها في الاسس الثلاثة الآتية :

أ— إثبات السبق الزمني لادب حضارة وادي الرافدين ، وقد سبق ان برهنا على ذلك .

ب— اثبات وجود الاتصالات التأريخية وتحديد الطرق التي انتقل فيها الكثير من العناصر والمقومات من حضارة وادي الرافدين الى الحضارات الأخرى . وتأتي في مقدمة طرق الاتصال هذه الاتصالات التجارية والحروب والفتوح والاسفار . فقد ثبتت الاتصالات التأريخية ما بين العراق القديم وبين اقطار كثيرة في الشرق الادنى وحتى اقطار نائية مثل سواحل الهند . إذ تشير الاخبار التأريخية والادلة الآثارية الى امتداد فتوح سرجون الاكدي (٢٣٧٠— ٢٣١٦ ق.م) واحفاده ولاسيما حفيده « نرام — سين » (٢٢٩١—٢٢٥٥ ق.م) الى اقاليم نائية مثل بلاد الاناضول وكريت وقبرص واقطار أخرى في حوض البحر المتوسط . وازدادت هذه الفتوح اتساعاً في العصور التي

تلت العهد الاكدي ولاسيما الفتوح الاشورية الواسعة التي نتج عنها اتصالات بعيدة بين اقوام حضارة وادي الرافدين وبين الاقوام القديمة ومنها بعض فروع القبائل اليونانية في سواحل الاناضول الغربية . وكشفت التحريات الآثارية الحديثة عن بقايا مستوطنات واسعة اقامها الآشوريون في عصرهم القديم (مطلع الألف الثاني ق.م) في الاناضول حيث المركز التجاري الشهير في المدينة القديمة المسماة «كانيش » (وتعرف بقاياها الآن باسم كول تبه بالقرب من قيصرية)(١) وقد عثرنا حديثاً في «لارنكا» في قبرص على مواد اثرية من حضارة وادي الرافدين من بينها ختام اسطوانية يرجع عهد البعض منها الى العصر الاكدي (اواخر الألف الثالث ق.م) (٢)

ج- اما الأساس الثالث فهو اثبات مواطن شبه اساسية في الاحداث والافكار والابطال من أدب حضارة وادي الرافدين في اساطير الامم القديمة وآدابها ، ونترك التبسط في هذا الجانب من الموضوع الى القارئ من بعد وقوفه على النصوص الادبية التي سنعرضها وسيجد فيها الكثير من اوجه الشبه هذه .

٧- والى هذا فان لأدب العراق القديم أهمية وخطورة خاصتين في فهم مقومات حضارة وادي الرافدين واوجهها المختلفة والطابع المميز لها . فان النصوص الأدبية التي وصلت الينا من هذه الحضارة مثل ملحمة جلجامش وقصص الخليقة والاساطير الخاصة باصل الوجود والأشياء وغيرها من القطع الأدبية التي سنتناولها تعد عند الباحثين منجماً زاخراً يقفون منه على اسس هذه الحضارة واتجاهاتها وعقائدها

---

(١) راجع عن تأريخ هذا المستوطن التجاري الآشوري وما وجد فيه من سجلات تجارية وشرائع بالخط المسماري واللغة الاشورية القديمة في كتابي : « مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة » الجزء الأول (الطبعة الثالثة ١٩٧٣) الفصل الخاص بالآشوريين .

(٢) انظر : CH.. Gordon, Before The Bible, (1962)

الاساسية ، فهي اصدق ماينقل الينا احوال اقدم المجتمعات الانسانية وعقائده ونظرته الى اصل الاشياء والآلهة ونظام الحكم ، كما تصور لنا البيئة البشرية والطبيعية التي نمت فيها تلك الحضارة . فان الدارس لنتاج العراقيين القدماء الادبي يستطيع أن يقف على طبيعة تفكيرهم في الكون والحياة ، ذلك الفكر الذي كان نتاجهم الأدبي مظهراً من مظاهره ووجهاً من اوجهه . وسنرى ان النزعة الغالبة على ذلك التفكير الاتجاه الاسطوري الشعري . ومما يقال بوجه عام عن هذا الموضوع إنه باستثناء مواضيع قليلة لايسعنا ان نسمي ماخلفوه فكراً فلسفياً بالمعنى الدقيق لهذا النمط من التفكير الذي يستند الى الاستدلال والنقد والاستنتاج المنطقي والتأمل والنظر في الاشياء نظراً موضوعياً . ومع أنهم عالجوا في اساطيرهم وانواع كتاباتهم الأخرى قضايامهمة لاتقل شأنا وخطورةعما كان كماقلنا يشغل الفلسفة اليونانية والفكر الحديث ، بيد أن تفكيرهم في مثل هذه القضايا كان كما قلنا تفكيراً خيالياً اسطورياً وشعرياً . واذا كانت الاساطير والقصص معروفة في الآداب الحديثة الا ان ادباء وادي الرافدين القدامى لم ينظروا الى اساطيرهم على أنها متعة أدبية فنية بل كانوا يعتبرون ان ما فيها من أراء حقائق معتبرة في تفسير الوجود والاشياء . وعلى هذا فينبغي لنا ان ننظر الى اساطيرهم على انها تعبر عن حقائق الكون بحسب أرائهم بالاضافة الى كونها نتاجاً أدبياً . . إنها كانت تفسر لهم نفس القضايا الاساسية التي عالجتها الفلسفة اليونانية باسلوب او منهج موضوعي مستند الى الاستدلال المنطقي . واذا ما وجدنا فيما سنذكره من القطع الأدبية تناقضاً في الآراء والمعتقدات عن اصل الكون والاشياء فان ذلك متوقع في التفكير الاسطوري الشعري (mythopoetic) لان التناقض لايبدو إلا للفكر الموضوعي المنطقي الذي يجاوزه ويسمو عليه خيال الشاعر الفنان ، ذلك الخيال الذي يكون فيه الحد مابين الاحلام وبين اليقظة

مختلطاً غير واضح المعالم . والواقع إن الرؤى لم تكن أقل نصيباً من الحقيقة من اليقظة ، فكان القوم يحصلون على التوجيه والارشاد الالهي عن طريق اتصالهم بالآلهة في الاحـــلام .

واذا ما حاولنا العثور في اساليب تفكيرهم على ما نسميه بقانون « العلّية » (Law of Causality) الذي هو أساس منهج العلوم الحديثـــة فاننا لانجد له آثاراً واضحة . انهم كانوا ينظرون الى علل الاشياء والحوادث من وجهة « من يحدثها » وليس « كيف تحدث » ؟ او « لماذا تحدث ؟ » فمـــثلا اذا لم ترتفع مياه دجلة كان السبب في ذلك ان النهر أبى أن يرتفع » لغضبه أو لغضب الآلهة التي تحكمـــه على البشر . وكان حكمهم على الاشـــياء والحوادث يستند بالدرجة الأولى الى مبدأ التمثيل والقياس (analogy) اكثر من اســـناده الى الاســـتناج والاستدلال (Inductive and deductive) ويظهر هذا واضحاً في السحر وطرق العرافة والكهانة وتصنيفهم للاشياء على اساس التشابه الظاهري ، مثـــل تصورهم للسماء على هيئة الأرض والارض على هيئة السماء ، حتى انهم اعتبروا السماء وكأنها دولة أو مملكـــة تحكم فيها الآلهـــة بمراتب ودرجات متفاوتة ويجتمعون في مجالس للشورى ويتخذون فيها القرارات الخطيرة على غرار المجتمع البشري في بلاد وادي الرافدين . كما ان مبدأ التشبيه (Anthropomorphism) الذي تتصف به آلهتهم مشتق من هذا النمط من التفكير (١) .

ومن انماط التفكير الأخرى التي يستنتجها القارئ من بعض القطع الادبية التي سنوردها مايصح أن نسميه مبدأ « الاسم » الذي بموجبه «لايمكن «لأي شيئ أن يوجد مالم يكن له اسم ، فتسمية الشيئ مرادفة لوجوده او إيجاده . ويظهر هذا واضحاً في اسطورة الخليقة البابليـــة التي عبرت عـــن حـــالة الكـــون

(١) مبدأ التشبيه تعزى بموجبه الى الآلهة صفات البشر المادية والروحية .

قبل وجودالسماءوالارض بالقول ! « في البدءلم تسمَّ السماء في العُلاَ ولم تذكر الارض باسم في الاسفل » . والجدير بالذكر بهذا الصدد أن حضارة وادي الرافدين لم تفرد بهذا الامر ، اذ نجده عند العبرانيين في رواية التكوين في التوراة (١) ، وكان الاسم في تفكير حضارة وادي النيل جوهر الشيئ وسر وجوده وقوته ، فكان للآلهة اسماء سرية تكمن فيها قدرتهم وقوتهم فلا يبوحون بها ، وامتدت الفكرة عند سكان مصر القديمة الى اسماء الاشخاص من البشر ، فكانوا يسمون الفرد باسمين ، اسم سرّي واسم آخر هو مايدعى به بين الناس . وسنرى من اسطورة الخليقة البا بلية كيف ان الآلهة اجتمعت في مجلس الشورى وانتخبت الاله « مردوخ » (كبير آلهة بابل) ملكاً عليها ليحارب قوى العماء والدمار الممثلةبالآلهة العتيقة ، ولكي تمكنه من ذلك تنازلت له عن اسمائها ، فصار هذا الاله يحوز على « خمسين اسماً » كل منها يمثل سر القوة والقدرة التي يملكها كل اله ، وفي بعض الحالات كان البشر يستطيعون ان يحوزوا على مافي اسماء الآلهةمن قوة ومناعة بمجرد كتابة اسم الاله . واتسعوا في هذا المبدأ بحيث انهم صاروا يرمزون الى الاسماء بالعدد . فمثلا يخبرنا الملك الآشوري سرجون الثاني (٧٢١–٧٠٥ ق.م) عن قصره في المدينة التي ابتناها وسماها باسمه « دور – شركين » (خرسباد الآن) بقوله : « بنيت جدار سورها بمقدار ١٦٢٨٣ ذراعاً وهو رقم إسمي (٢) ولما كان الاسم جوهر الشيئ وسر وجوده نشأت عندهم فكرة تسمية الأشخاص والاشياء المحببة باسماء تنطوي على اليمن والفأل الحسن (٣) ونجد ذلك عاماً تقريباً في اسماء الاعلام التي يغلب عليها ان تكون اسماء مركبة تؤلف جملة كاملة

---

(١) سفر التكوين ٢ : ٥–٥

(٢) لعل هذا اصل المبدأ الخاص باعطاء الحروف قيما عددية

(٣) قارن المثل اللاتيني : Momen est Omen

تتضمن اسماء الآلهة . وبالنسبة الى اسماء الاشياء مثل المباني نذكر بعض الامثلة من اسماء الكثير من محلات مدينة بابل وشوارعها ومبانيها مثل اسم شارع الموكب الذي ورد ذكره في النصوص المسمارية بهيئة ! « أي – يعبر – شابو » (ai-ibur-shabu) ومعناه: « عسى ان لايعبر العدو ». واسم بوابة عشتار الشهيرة : « عشتار – شاكبت – تبيشا » (Ishtar-shabibat-tebisha) اي: « عشتار قاهرة اعدائها »

وخلاصة مايقال بهذا الصدد إن المعتقدات الدينية قد أثرت في أدب العراق القديم بوجه خاص وفي انواع الفنون الأخرى بوجه عام ، شأنها في ذلك شأن الحضارات القديمة الأخرى ، سواء كان ذلك في اشتراك الآلهة باحداث الملاحم البطولية والقصص والاساطير ام في المواضيع والاغراض الدينية المتنوعة كالتراتيل والادعية والصلوات التي كانت تؤلف قسماً مهماً من النتاج الأدبي الشعري ، إذ انها كانت تنظم شعراً ! أما النثر ولاسيما النثر الأدبي فقد استخدموه في اغراض ادبية أخرى مثل تدوين الحوادث التأر يخية والرسائل الرسمية الملكية وتدوين أعمال الملوك وحملاتهم الحربية والشرائع والحكم والامثال والمواعظ .

٨ – الاعادة والتكرار واستباق نتائج الاحداث :

ومن الميزات العامة التي سيلاحظها القارئ لاشهر القطع الأدبية ، مثل ملحمة جلجامش واسطورة الخليقة ، ظاهرة التكرار والاعادة مما يبعث السأم والملل عند القارئ الحديث . فمثلا اذا ارسل أحد الآلهة رسولا ليبلغ أمراً ما الى اله آخر فان الرسول يعيد جميع الابيات التي قالها الاله المرسل مهما بلغ عددها . ومن الطريف ذكره بصدد هذه الميزة ان الباحثين المحدثين قد افادوا منها كثيراً في الاستعانة بها لاكمال مواطن كثيرة قد انخرمت وضاعت عن النصوص الاصلية في الواح الطين

ومهما كان الامر فان أدب العراق القديم لاينفرد بهذه الظاهرة بل يضاهيه فيها الكثير من آداب الامم القديمةمثل الالياذة والاوديسة . وقد استند بعض الباحثين الى هذه الظاهرة في مثل هذه الآداب العالمية فارجع اصلها الى الانشاد والرواية الشفوية ، حيث كان المنشد يستعين بالتكرار والاعادة ليستعيد الى ذاكرته ما سينشده من أبيات تالية .

ومن الخصائص الأخرى التي يلاحظها الفاحص لنصوص ادب وادي الرافدين – والمثال على ذلك واضح في ملحمة جلجامش – ما يصح أن نطلق عليه استباق الاحداث او « استباق النتائج » ((anticipaton)) اي استباق ما ستتمخض عنه الرواية او القصة والتنويه بالنهاية والحل . ففي ملحمة جلجامش مثلاً تبدأ الرواية بديباجة في التعريف ببطل الرواية والتغني بامجاده ، وتنوه ايضاً بمجمل موضوع الرواية وخاتمتها . ونجد ما يضاهي هذا في الملاحم العالمية المشهورة مثل الالياذة والاوديسة والملحمة الجرمانية المسماة « اغاني النيبيلونكك » (١) والمرجح أن يكون تفسير هذا في تحريك السامع وتشويقه الى احداث الرواية ،ولعله يمكن تشبيه هذا الاسلوب من الفن القصصي القديم باساليب العرض السينمائي الحديث ، حيث يبدأ بعض الافلام بلقطة من خاتمة الرواية او من اهم احداثها ثم تبدأ حوادث الرواية بالتسلسل وتنتهي بالمشهد الذي بدأت به . واستنادا الى هذه الظاهرة فان حقيقة كون بداية ملحمة جلجامش او ديباجتها مضاهية لخاتمتها دليل على ان النصوص التي وصلت الينا منها تمثل الملحمة كاملة تقريباً .

Niebeliungenlied

(١) ملحمة جرمانية مشهورة في آداب القزون الوسطى وتدور احداثها ، مثل ملحمة جلجامش ، على مغامرات البطل « سيغفريد » في ارض الظلام مع ملوكها البورغنديين وقتلهم اياه ثم ثأر زوجته له . . . الخ

٩ ـ الفهارس والسجلات والمكتبات :ـ

لعلنا لانبالغ اذا قلنا إن حضارة وادي الرافدين فاقت معظم الحضارات القديمة في كثرة التدوين الذي شمل جميع شئون الحياة الخاصة والعامة تقريباً . وتميز بعض عصورها بضخامة ماجاء الينا من الواح الطين التي لعلها تجاوز المليون لوح كما ذكرنا مما كشف عنه لحد الآن من العهود المختلفة مثل عصر سلالة اور الثالثة (٢١١٢ـ٢٠٠٤ ق.م) ، لعله في حدود ٣٠٠٠٠ الى ٤٠٠٠٠ لوح والعصر البابلي القديم (٢٠٠٠ـ١٥٠٠ ق.م) في حدود ٥٠٠٠٠ الى ٧٠٠٠٠ لوح والعصر الآشوري الحديث ماينا هز ٨٠٠٠٠ لوح ثم العصور المتأخرة مثل العصر البابلي الحديث (منتصف القرن السادس ق.م) والعصر الفارسي الاخميني (٥٣٩ ـ ٣٣١ ق.م) والعصر السلوقي والفرثي (٣١١ق.م ـ ٢٢٦ م) .

وبالنسبة الى التدوين بدأت غزارة النصوص الادبية منذ العصر البابلي القديم وسنرى من تلخيص بعض القطع الأدبية كثرة النسخ التي خلفها كتبة العراق القديم في الازمان المختلفة ابتداء من العصر البابلي القديم المار الذكر . ولعل ابلغ مثال نسوقه في تأريخ التدوين والولع بجمع النصوص المختلفة لشتى صنوف المعارف التي اشتهرت بها حضارة وادي الرافدين خزانة كتب الملك الآشوري الشهير « آشور بانيبال » (٦٦٨ـ٦٢٦ ق.م) في نينوى حيث كشفت التنقيبات القديمة فيها (منتصف القرن التاسع عشر) عن مجاميع ضخمة من الواح الطين التي حوى الكثير منها كنوزاً من ادب حضارة وادي الرافدين وهي نسخ من نصوص اقدم عهداً ، وقد نظمت في المكتبة الملكية في مجموعات حسب موضوعاتها كما سنوضح ذلك بعد قليل .

ويجدر أن نشير بهذا الصدد الى ان احد الباحثين اكتشف في السنوات القليلة الماضية بعض النصوص التي تدل على وعي أدبي في فهرسة القطع الادبية ، فقد وجد من بين الواح الطين التي عثر عليها في مدينة « نفر » في اثناء التحريات القديمة فيها لوحان احدهما موجود الآن في متحف اللوفر (باريس) والآخر في متحف جامعة فيلادلفيا ، وهما يتضمنان عناوين مؤلفات أدبية سومرية . ويحتوي لوح فيلادلفيا على ٦٢ عنواناً ولوح اللوفر على ٦٨ عنواناً ، واذا اخرجنا ٤٣ عنواناً مشتركاً في اللوحين فيكون عدد العناوين المسجلة فيهما ٨٧ عنواناً لنصوص ادبية امكن تعيين ٢٨ تأليفاً منها حيث وجد اصله الكامل في الالواح المكتشفة سابقاً (١) .

١٠– أثر مادة الكتابة في اسلوب التدوين :

وكان لمادة الكتابة ، وهي الطين الذي كان المادة الرئيسية في التدوين، أثر كبير في اشكال المدونات المختلفة وفي مقدمتها النصوص الادبية وطريقة جمعها وفهرستها وتسلسلها . فعلى ماهو معروف لايمكن تدوين نصوص مطولة على لوح واحد من الطين مهما بلغ كبره حيث لايمكن استعمال لوح يتجاوز حجم الآجرة على اكثر تقدير . اما في حالة النصوص والعقود التجارية والرسائل وغيرها من شؤون الحياة الاعتيادية فكان يكفي لوح واحد لاستيعابها . وحلت مشكلة تدوين النصوص الادبية والتأريخية المطولة بطريقتين :

١– تدوين النص المطول في عدة الواح ترتب على هيئة سلسلة متتابعة ويذيل

(١) درس هذين اللوحين ونشرهما الاستاذ « كرامر » انظر :

S.N. Kramar, The Oldest Literary Catalogue" in Bulletin of The American Oriental Society, No.88 (1942 ; Sumerian Mythvlogy, (1944),p. 14

كل لوح منها بعنوان السلسلة العام مع رقم تسلسله و بداية السطر الذي يبدأ به اللوح التالي . وكانت كل مجموعة من هذه السلاسل من النصوص الأدبية تحفظ في رفوف او في اوعية (جرار) من الفخار و يعلق فيها عنوان المجموعة الذي يسجل على لوح صغير من الطين . وهكذا وصلت الينا ملحمة جلجامش الشهيرة مدونة على اثني عشر لوحاً ، واسطورة الخليقة على سبعة الواح . وجرت عادتهم في عناوين مثل هذه المجاميع الأدبية ان تعنون كل مجموعة باول عبارة او شطر من الشعر فيها . فمثلا جعلوا عنوان ملحمة جلجامش : « شا نَقْبَا إمورو » (sha naqba imuru) اي : « هو الذي رأى كل شيئ ، من سلسلة جلجامش (إشكار جلجامش) ، مكتبة قصر آشور بانيبال » . وعنوان مجموعة اسطورة الخليقة : « إينّما إيليش » او « حينّما عيلش » (enuma elish) اي « حينما في العلا » ؛ وعنوان شريعة حمرابي الشهيرة « إينو (حينو) آنُتمْ صِيرُ مْ » (inu Anum serum))اي : « حنما آنو المبجل » .

ولعله من المفيد ان تتمم هذه الملاحظات عن عناوين المؤلفات الأدبية بذكر ماجاء الينا من عناوين بعض القطع الأدبية السومرية المشهورة ، حيث درج المؤلفون والنساخ كما ذكرنا على تذييل مثل هذه القطع بعناوينها الخاصة ، فصنف من أدب المناظرة او المفاخرة الذي سنذكر نماذج منه عنوانه بالسومرية : « أدمَن– دوكا »(ADAMAN-DU-GA) وصنف من المؤلفات الادبية اطلق عليه عنوان « اندو لوكا » (ANDULUGAL) وهو ضرب من التراتيل والمدائح التي كانت تنظم لمدح الملوك والحكام . وهناك صنف من الاشعار الغنائية والترانيم اطلق عليها بالسومرية مصطلح « شِرْ » او « سِرْ » (SIR) المضاهية للكلمة السامية « شير » و « شيرو » والعربية « شعر » ، ولكن لايعلم بوجه التأكيد ايهما أصل للأخرى ، وذكرت جملة انواع من هذه الترانيم المصدرة بكلمة « شِرْ » ولكن

لاتعرف ماهيتها مثل « شِرّ– نمنار » (SIR NAMNAR) و «شِر–خامُن» (SIR HAMUN) و « سـرنام كالا » (SIR - NAM-GALa) اي اغاني كهنة الـ « كالا » ونوع من الاغاني يعنى حرفيا « ترانيم الرعاة للالهة إناتا » (SIR-NAM-SIPAD-INANNA) وانواع اخرى من الاغاني والترانيم تصدر بالكلمة السومرية « أدب »(ADAB) والكلمة « تيكي» ولا يعرف معناها بوجه التأكيد ولعل الأساس في تصنيفها أنها كانت تنشد على الآت موسيقية ذات عدد خاص من الاوتار وصنف آخر يسمى بالسومرية « بلباله » (BALBALE) وهو نوع خاص من الاغاني ايضاً ، وقد ذيلت بها بعض القطع الأدبية من نوع الحوار (dialogue) وصنف آخر يرجح أن يكون أدب الرثاء والندب اطلق عليه بالسومرية « بلا گ » (BALAG) (١) ،جاءت الينا قصائد سومرية قليلة في الرثاء وبوجه خاص رثاء تدمير المدن ومراكز العمران مثل رثاء سـقوط مدينة « اور » قد.

إن هذا الاسلوب الذي اشرنا اليه في طريقة حفظ النصوص الادبية له صلة وثيقة باصل نظام المكتبات وحفظ السجلات (الارشيفات) حيث كانت المجموعات المختلفة من الواح الطين والمفهرسة على الوجه الذي ذكرناه تودع في حجرات خاصة من المعابد والقصور والبيوت وقد كان بعضها يحتوى على عشرات الالوف من الوثائق والسجلات مثل مكتبة « آشور بانيبال » في نينوى التي سبقت

(١) بالاضافة الى المراجع السابقة التي استشهدنا بها انظر المصدرين الآتيين :

1. Falkenstein und Von Soden, Sumerische und Akkadische Hymnen und Gebete,(1956), 20ff .
2. Hallow, "The Cultic Setting of Sumerian poetry " in Rencontre Assyriologique Internationale, xv111 (1969), 1971, 166ff,

الاشارة اليها مراراً ، وغيرها من دور الالواح او دور الكتب البابلية والآشورية في كبريات المدن القديمة . وكان بعضها مثل مدينة « نفر » مركزاً كبيراً للتعليم والاستنساخ والجمع حيث مدارس الكتبة المتمرسين في مختلف اصناف المعرفة .

٢ــ اما الاسلوب الثاني في تدوين النصوص الادبية المطولة على الطين ولا سيما النصوص التأريخية مثل حوليات الملوك واعمالهم العمرانية والعسكرية فكان يتم باستعمال مناشير (prism) واساطين (Cylinder) من الطين كبيرة الحجوم نوعاً ما . ومع ان استعمال الاساطين بوجه خاص كان معروفاً في بلاد بابل في العهد السومري المتأخر (مثل عصر جودية اواخر الألف الثالث ق.م) الا ان استعمال المناشير واستعمال الاساطين بكثرة ظهر عند البابليين والآشوريين في ادوارهم الأخيرة منذ القرن الثاني عشر ق.م بوجه التقريب وكانت مثل هذه المناشير والاساطين تستوعب نصوصاً مطولة بحيث انها تضاهي حجم كتاب صغير او كراس كبير .

ويجدر ان نلاحظ بمناسبة ذكر الكتاب ان اصل « الكتاب » لايمكن أن يرجع الى هذه الطرق من التدوين التي اتبعت في حضارة وادي الرافدين ، فان مادة الكتابة فيها ، أي الطين ، لايمكن ان يؤلف منها كتاب ، ولعله يمكن حصر اصل الكتاب في تأريخ الحضارات البشرية في احتمالين : الاحتمال الأول ان الكتاب نشأ من استعمال لفات ورق البردي الذي اختصت باستعماله حضارة وادي النيل ، إذ المعروف مما جاء الينا من هذا النوع من الورق ان لفات البردي كانت تستوعب نصوصاً مطولة من الكتابة ، ولعل مما يؤيد هذا الاحتمال اصل تسمية « كتاب » في اللغات الأوربية وهي التسمية المشتقة من الاغريقية

« ببليون » (biblion) ومنها تسمية المكتبة « ببليوتيك » (bibliotheca) وهي كلمة مأخوذة من اسم المدينة الفينيقية « ببلوس » (جبيل) ، لان الاغريق كانوا يستوردون ورق البردي المصري عن طريق تلك المدينة .

اما الاحتمال الثاني عن اصل نشوء الكتاب فانه يرجع ، بالاضافة ورق البردي ، الى ما كان يستعمله الاشوريون من الواح الخشب او العاج الرقيقة والكتابة عليها بعد طلي سطوحها بالشمع ، وكانوا يوصلون جملة الواح منها بمفاصل من اسلاك النحاس فيكون كل لوح بمثابة صفحة كتاب ومجموع الالواح بين دفتين يؤلف الكتاب ، وقد وجد حديثاً في اثناء التنقيبات البريطانية في مدينة « نمرود » (كالح القديمة بالقرب من الموصل) نماذج من هذه الالواح ومما لاشك فيه ان الوفاً من هذه الالواح قد بليت بمرور الزمن فلم تصل الينا (١) والمعروف ايضاً ان الكتبة الآشوريين استخدموا بالاضافة الى هذه الالواح الرقوق الجلدية (parchment) كما تشير الى ذلك الصورة الممثلة في المنحوتات الآشورية .

١١ــ اسماء المؤلفين والادباء والشعراء :

ننهي هذه الملاحظات العامة عن أدب حضارة وادي الرافدين باثارة تساؤل مهم كثيراً ما يتوارد الى اذهان قراء القطع الادبية المشهورة التي وصلت الينا من هذه الحضارة ، الا وهو من كان اولئك الادباء والشعراء الذين خلفوا لنا تلك الروائع الأدبية ؟ والاجابة على هذا التساؤل بوجه الايجاز هو اننا اذا استثنينا بعض الحضارات القديمة وبوجه خاص الحضارتين اليونانية والرومانية ، فان القاعدة العامة في تلك الحضارات ومنها حضارة وادي الرافدين ان يندر ذكر

(١) راجع عن هذه الالواح :

Wiseman "Assyrian Writing Boards" in IRAQ, 17 (1955), 3ff.

اسماء المؤلفين بوجه عام ومنها اســـماء مبدعي القطع الأدبية (١) ، وانه اذا جاء الينا بعض النصوص الادبية وهي مذيلة باسماء اشخاص فالغالب فيهم أن يكونوا نساخا او جامعين ، وقد يكون البعض منهم ،ولا سيما في حالة النسخ القديمة، مؤلفي القطع الأدبية او واضعيها او منقحيها بشكلها النهائي . ولعله يمكن تفسير هذه الظاهرة من اغفال اسماء المؤلفين والادباء بان القسم الاعظم من النتاج الأدبي في حضارة وادي الرافدين نشأ ونما على هيئة تراث قومي شاركت في انتاجه اجيال كثيرة من الشعراء ولم يتفرد بانتاجه اديب واحد على غرار مانعرفه في الآداب الحديثة ، ولعل شأنه في ذلك شأن الملاحم القومية المشهورة والقصص الشعبية مثل الف ليلة وليلة والالياذة والاوديسة اللتين تنسبهما المآثر اليونانية الى هوميروس .

وهناك بعض الحالات القليلة التي يرجح فيها ان يكون الاشخاص المذكورة اسماؤهم في ذيل بعض القطع الأدبية مؤلفي هــذه القطع نذكر منهــم الاسماء الآتية :

١ــ احد جامعي ملحمة جلجامش الذي ورد اسمه في احدى نسخ الملحمة على هيئــة « ســين ــ ليقي ــ اوننى » (Sin-leqe-uninni) (٢) والمرجح أن الصيغة النهائية التي جاءت الينا فيها الملحمة تعزى الى هذا المؤلف من حدود ١٢٥٠ ق.م .

---

(١) انظر حول الموضوع :
Lambert, "Ancestors, Authors and Canonicity " in Journal of Cuneiform Siudies, x1 , (1957), 1ff.

(٢) انظر المصدر السابق (JCS x1 (1957,pl.11,l.10 حيث جاء إسمه في نسخه في لوح من العهد السلوقي وجد في الوركاء (انظر تقرير التنقيبات عام ١٩٦٢ ص ٤٣) وعبارة : « طبق سين ــ ليقي ــ اوننى » الكاهن من صنف « مشمشو (ماش-ماش) .

٢– مؤلف اسطورة اله الطاعون « إيرّا » وقد جاء اسمه بهيئة « كبتي – إيلاني – مردوخ » ، ويذكر هذا الشخص ان الاله « مردوخ » نفسه ظهر له في الحلم واملى عليه القصيدة ولما استيقظ دونها بدون ان يضيف اليها او ينقص منها شيئاً .

٣– مؤلف ثالث يقترن اسمه بقطعة أدبية مشهورة سيأتي شرحها تصنف بما يصطلح عليه « العدل الالهي » (Theodicy) ، وهي على هيئة حوار طريف مابين متشكك في العدالة الالهية وبين عبد صالح ، وقد ذكر اسمه بطريقة الصناعة الادبية اللفظية التي يطلق عليها مصطلح (acrostic) او (alleteration) وفحواها اننا اخذنا المقاطع الأولى من كل بيت من ابيات القصيدة وجمعناها بعضها الى بعض فانها تؤلف اسم منشئ القصيدة مع مهنته ودعاء الى احد الآلهة نصها ؛ « انا ساگل – كينام – اوبب (Saggil-kinam-ubbib) الكاهن المعوّذ ، خادم الاله والملك » .

٤– ناسخ او مؤلف احدى قصص الطوفان البابلية المعنونة « اترا – حاسس » الذي ذكر بهيئة « كو – آي » ، من زمن احد ملوك سلالة بابل الأولى المسمى « عمّي – صادوقاً » .

• • •

الشعر والنثر الادبي

على ضوء ما اوردناه من ملاحظات تمهيدية عن ادب حضارة وادي الرافدين نتناول الآن الموضوعات الاساسية عن هذا الادب فنتكلم عن:

١ــ الشعر والنثر الادبي .

٢ــ المواضيع التي تناولها ذلك الأدب سواء كان شعراً أم نثراً وتعداد اشهر النصوص الأدبية التي وصلت الينا .

١ــ الشعر :

ستكون ملاحظاتنا عن الشعر في حضارة وادي الرافدين (١) منصبة بالدرجة الأولى على الشعر البابلي ، اي الشعر الذي نظمه شعراء العراق القديم باللغة البابلية (السامية) لأن معرفتنا باللغة البابلية وشعرها اكمل واوفى من معرفتنا بالشعر السومري ذلك لأن الباحثين مازالوا غير متأكدين من لفظ الكثير من الكلمات السومرية على الرغم من معرفتنا بمعاني الكثير منها ، ولذلك فلا يمكن الوقوف على اوزان

(١) لايسعنا الخوض في ماقيل من نظريات وآراء عن الشعر عندالانسان فيكفي التنويه بان الشعر كان على مايرجح اول مازاوله الانسان من الفنون الأدبية ، وان منشأه من الانشاد والغناء الشعبي . فالغناء على ما يذهب اليه معظم الباحثين ، أصل الشعر في جميع الآداب العالمية . ولعل مما يؤيد ذلك بالنسبة الى اللغات السامية ان كلمة شعر المستعملة فيها بما يطابق اللفظ العربي تقريباً ، تعني في اصل ما وضعت له الغناء والانشاد مثل « شيرو » البابلية و « شير » العبرانية و « شور » الارامية وكلها فقدت حرف العين ، ومن ذلك المصطلح العبراني « شير هشريم » (نشيد الانشاد المنسوب الى سليمان في التوراة) ، ومن قبيل هذا ماجاء في المآثر العربية عن اصل العروض والوزن في الشعر العربي انه من الغناء وحداء الابل ، والمصطلح الادبي المألوف في رواية الشعر : « وانشد فلان ». هذا ولا يعلم بوجه التأكيد علاقة الكلمة البابلية « شيرو » بالكلمة السومرية التي مرت بنا اي « سر » او « شر » (SIR) التي تعنى الغناء وقد سبق ان ذكرنا انها تصدر بها جملة قصائد شعرية سومرية من نوع الاغاني والترانيم ، فهل هي أصل الكلمة البابلية ثم الكلمات المضاهية في اللغات السامية الأخرى أم انها مأخوذة من الكلمة البابلية السامية التي هي الاصل .

الشعر السومري بحسب معرفتنا الراهنة . ويختلف الحال بالنسبة الى اللغة البابلية وشعرها بالنظر الى مانوهنا به سابقاً من وشائج القربى القوية ما بين اللغة البابلية وبين لغات سامية أخرى معروفة ومحكية في عصرنا الراهن ، وفي مقدمتها العربية والارامية والعبرانية . وسنقف على اوجه الشبه الكثيرة بين مبادئ الشعر البابلي والشعر العربي مثل الوزن وفن التأليف والنظم .

واذا تجاوزنا مناقشة ماهو الشعر وماهي اسسه ومقوماته ولا سيما في الاتجاهات الأدبية الحديثة ، فاننا نسير في تحديد مفهوم الشعر في النصوص الأدبية التي خلفتها حضارة وادي الرافدين على الأسس والمبادئ المأثورة (الكلاسيكية) المتبعة في دراسة الآداب العالمية وتصنيفها الى شعر ونثر أدبي ، ولاسيما المبادئ الاساسية الآتية : —

١— وجود الايقاع الخاص اي العروض والوزن (meter. rhythm).

٢— اتباع نظام خاص في تأليف هذا الكلام الموزون من حيث تقسيمه الى وحدات صغيرة وضم هذه الوحدات في مجموعات اكبر منها ، كالشطر والبيت والبيتين والاربعة ابيات والقصيدة . . .

٣— انتقاء مفردات لغوية خاصة بلاغية ، اي ما يسمى بالالفاظ الشعرية من ناحية الجرس اللفظي والمعنى بالنسبة الى مقاييس اللغة التي ينظم فيها الشعر . ويدخل ضمن هذا تركيب خاص في الكلام يختلف عن الاستعمالات المتبعة في النثر .

٤— الموضوع او المحتوى الذي يتناوله الشعر والتعبير عن ذلك بتعابير مؤثرة في السامع او القارئ .

٥ـ اما المبدأ الخامس وهو القافية (Rhyme) فلم يلتزم به في شعر حضارة وادي الرافدين ، فكان هذا الشعر ، سواء كان سومرياً أم بابلياً ، موزوناً ولكنه غير مقفى . والقافية ، على ماهو معروف ، ليست من الشروط الاساسية للشعر ؛ فهناك انماط من الاشعار العالمية القديمة والحديثة لم تلتزم القافية ، مثل الشعر اليوناني والعبراني واللاتيني ، وما يسمى في الادب الانجليزي بالشعر المرسل (Blank Verse) مثل الكثير من شعر شكسبير .

العروض في الشعر البابلي :ـ

يعتمد العروض ، أي الوزن ، في الشعر البابلي ، مثل اشعار بعض الامم الأخرى كالشعر العربي واليوناني واللاتيني وغيرها ، على مبدأ تجزئة الكلمات الى مقاطع (Syllables) التي تتناوب مابين المقاطع الطويلة والمقاطع القصيرة اي بحسب مصطلحات عروض الشعر العربي « الاوتاد » و « الاسباب » التي اساسها الحركة والسكون(*) ، وفي بعض الاشعار الأخرى النبرات او التشديد والتخفيف (accented, unaccanted) . وبجمع عدة مقاطع يتألف مايصطلح عليه في الشعر العربي « التفعـــيلات » اي ما يضاهي (foot) في الشعر الانجليزي ، ثم جمع عدة تفعيلات يتكون منها شطرا البيت . وعلى هذا الشكل جاء

---

(١) يعرف العروضيون السبب بان قوامه حرفان : ـ

أ ـ السبب الخفيف ، حرفان متحرك وساكن مثل « من » « عن » الخ .

ب ـ السبب الثقيل : حرفان متحركان ، « مثل « بك » « لك » الخ

اما الوتد فقوامه ثلاثة احرف :ـ

أ ـ الوتد المفروق ، حرف ساكن بين حرفين متحركين مثل « أين » « كيف » الخ

ب ـ الوتد المجموع : حرفان متحركان يليهما ساكن مثل « إلى » « على » الخ .

الينا الشعر البابلي مدوناً على الواح الطين . وقد يترك الكتبة فواصل مابين شطري البيت ، اي مابين الصدر والعجز ، وما بين الوحدات الشعرية الاكبر في بعض الاحايين .

اما عدد بحور الشعر البابلي (١) ومضاهاة هذه البحور لاوزان الشعر العربي فانه موضوع بحث خاص وطريف وجدير بالدرس من جانب العروضيين العرب ويكفي في هذه المقدمة التمهيدية ايراد بعض الابيات من القصائد البابلية الشهيرة . وقد سبق ان بدأنا هذه المقدمة بثلاثة أبيات من قصيدة المحاورة ما بين السيد وعبده . ونضيف الى ذلك نماذج اخرى نثبتها بلفظها البابلي بالحروف اللاتينية والعربية وترجمتها العربية :

١ ــ البيتان الاولان من قصيدة اسطورة الخليقة :

enuma elish la nabu shamamu
shaplish ammatum shuma la zakrat

وبالحروف العربية مع محاولة ارجاع الاصوات الحلقية المفقودة من البابلية والمرادفة للعربية :

---

(١) عن اوزان الشعر البابلي ولا سيما في ملحمة جلجامش واسطورة الخليقة راجع البحوث الآتية :ـ

De Liage Bohl, "La metrique de l'Epopee babyloienne" in Rencontre Assyriologique Internationle", v11, (1958)

وعن الشعر السومري والبابلي بوجه عام وقدم هذا الشعر :

Falkenstein und Von Soden, Sumerische und Akkadische Hymnen und Gebete, (1956).

Hallow, "The Cultic Setting of The Sumerian poetry" in Rencontre Assyrilogique. . . " xv11, (1969) 116ff.

Hallow, "On The Antiquity of Sumerian Literature" in JAOS, (1963), 167ff.

حِينّما عيلش لا نَبوُ شَمَامو

شَاپْليش أمّتُم شوُمَا لازكرة

وترجمتها : حينما في العلا لم ينبأ عن السماء (لم تسّم باسم) وفي الاسـفل لم تذكر الارض باسم .

٢ــ ونأخذ مثالا آخر من ملحمة جلجامش ، وهي الابيات المتضمنة خطاب صاحبة الحانة الى جلجامش مبينة له عبث مايسعى اليه من نيل الخلود :

sabitum ana shshum izakkara ana Gilgamesh
Gilgamesh esh Tadal
baltam sha Tasahhura la Tutta
inuma ilani ibnu awilitam
matam ishkunu ana awilitin
baltam ina qatishunis issabtu
atta Gilgamesh lu mali karashka
urri u mushi hiddadu atta

وتأدية اصواتها بالحروف العربية ــ

سابيتُم أنا شاشُمْ إزّكرًا أنا جلجامش

جلجامش إيش تدال

بَلطَمْ شاتسخورا لاتُتّا

حِينُما إيلاني إبنو اويليتْمْ

ماتَم إشكونوا أنا اويليتِمْ

بَلطَم إنا قاتيشيونو إضَّبطوا

أتّا جلجامش لو مَلئ كرَ شكا
اورّى و موشى خدّادو أتّا

وترجمتها :

قالت صاحبة الحانة سابيتُم(١) لجلجامش
ياجلجامش أي شيئ تسعى اليه ؟
الحياة التي تنشد لن تجدها
فحينما خلقت الآلهة البشرية
قدرت الموت على البشرية
وضبطت الحياة بايديها
فانت ياجلجامش ليكن كرشك مملوءاً
وافرح نهار مساء

٣- ونورد نموذجاً ثالثاً من خطاب جلجامش الى الصياد حين أمره أن ينطلق الى « انكيدو » ويصطحب معه بغياً لاغرائه واستدراجه من البادية الى مدينة الوركاء حيث يحكم جلجامش :

alik sayyadi itti-ka harimtu shamhat urima
enuma bulam ishaqu ana mashqe
shi lishhut lubushi-sha-ma lipta quzub-sha
immar-shi-ma itihha ann shashi
inakkirsuh bul-shu sha irbu eli seri-shu

وفي الحروف العربية

ألَك صيّادي إتّيكا خارمْتمُ شمخة أورما

(١) سابيتو (سابيم) ، بائعة الخمر ، من مادة « سبأ » ، « والعربية » سباء بائع الخمر .

حِينما بولمْ إشاقو أنا مَشْقى

شيي لِشخطْ لبوشيشاما لِفْتحَ قُضُبْثا

إمّا رشَيما إطخًا أنا شاشي

إنكرّ شو بُو لُشو شا إرْ بّوُ علي صِيريشُو (صَحْرِ يشو)

وترجمتها :

انطلق ياصيادي واصطحب معك بغياً مومساً (١)

حينما (يأتي) ليسقي الحيوانات من المسقى (مورد الماء)

لتخلع لباسها وتكشف (تفتح) عن عورتها (قضيبها)

فاذا ما رآها وقع عليها (طاح عليها)

وعندئذ ستنكره حيواناته التي ربيت في صحرائه

ونختتم هذه الملاحظات الموجزة عن الشعر البابلي بذكر بعض الامور الأخرى الموضحة مما يتعلق باسلوب تأليف الشعر واجزائه . فبعد تأليف البيت الواحد بجمع عدة تفعيلات ، كما ذكرنا، كان الناظمون يجمعون جملةأبيات لتأليف وحدات شعرية اكبر، بعضها من بيتين (دوبيت Couplet) أو اربعة ابيات (الرباعيات) Quartet وبعضها من اكثر من اربعة أبيات مثل الدور او الموشح . Stanza

والغالب أنهم كانوا يراعون في هذا الجمع والتأليف وحدة المعنى ، مثل توضيح فكرة خاصة او تكميلها او توكيدها . فقد يكون معنى البيت الثاني في الدوبيت مكملا او موضحاً لمعنى البيت الأول او رجعاً وصدى لمعناه كما في البيتين التاليين

(١) تترجم كلمة « شمخة » في الغالب مومس ، وقد ارتأيت في ترجمتها في الطبعة الثانية من ملحمة جلجامش (وزارة الاعلام ١٩٧١) بانها اسم علم للبغي كما ذهب الى ذلك احد الباحثين انظر .
C. Gordon, Before The Bible, (1962),

من ملحمة جلجامش : (١)

« صرخت عشتار كالمرأة في الولادة »

« انتحبت سيدة الآلهة بصوت شجي »

وقد يكون من المفيد ان نورد هذين البيتين بلفظهما البابلي في الحروف اللاتينية والعربية :ـ

Isishshi Ishtar kima aliddi
unamba belit- " Ilani Tabat rigma

« إسيشيّ عشتار كما آليدّي
أونمبا بَعْلة إيلاني طابت رِكمَا »

او ان يكون البيت الثاني مغايراً ومفارقاً لمعنى البيت الأول تمهيداً لتدرج موضوع القصيدة العام ، والمثال على ذلك البيتان الأولان من اسطورة الخليقة اللذان استشهدنا بهما في شرح عروض الشعر البابلي اي :

« حينما في العلا لم ينبأ عن السماء

« وفي الاسفل لم تذكر الارض باسم »

وللمثال على وحدة معنى الابيات الأربعة اي الرباعيات نقتبس الرباعية التالية من اسطورة الخليقة ، وهي الابيات التي جاءت على لسان الالهة « أبسو » ، زوج الالهة « تيامة » في تبرير عزمه على القضاء على ابنائه من جيل الآلهة الحديثة إذ يقول :ـ

امرضتني اعمالهم
فلا استريح نهاراً ولا استطيع النوم في المساء

(١) في هذا الاسلوب من النظم والتأليف اثر واضح من الشعر السومري ، وهو موضوع لامجال للخوض فيه في هذه المقدمة التمهيدية ، على ان القارئ سيقف على هذا الامر من الامثلة المترجمة التي سنوردها لبعض القطع الشعرية السومرية .

لاقضين عليهم واضع حداً لاعمالهم
لكي يعم السكون فنستطيع النوم »
وبلفظها البابلي :

imtaras alkat-sunu elia
urra la shupshuhak mushi la sallak
lushhaliq-ma alkat-sunu lu shappik
qulu lishshakin i nisłal ninu

وبالحروف العربية

« إمترص ألكات ــ سونو عليا
أورّا لا شيشوخاك، موشى لا صَلاك
لُشْخالِقْ ــ ما ألكاتْ ــ سونو لو شَپّك
قولو لِشّاكنْ إي نِصْلاَل نِينُو (نحنُ)

لغة الشعر والتعبير الشعري

بالاضافة الى ماسبق ان اوجزناه من الخصائص الاساسية التي تميز الشعر البابلي كالعروض وطريقة التأليف والجمع والتعبير اللغوي الخاص ، فان هذا الشعر يشارك الاشعار العالمية الأخرى في الخاصية الأخيرة ، أي اختيار الالفاظ الشعرية المعبرة . ولكل لغة مفرداتها والفاظها واستعمالاتها الشعرية المتعارف عليها بين ابناء تلك اللغة . كما ان الكلام الشعري ، على ماهو معروف في الشعر العربي والاشعار الأخرى يتميز في نمط تركيبه عن الاساليب المتبعة في النثر ، ومن ذلك التحرر نوعا ما من الالتزام بقواعد التركيب في لغة النثر والتحلل من الكثير من قيوده ، كالتقديم والتأخير في أجزاء الكلام لاحداث الانطباع او التأثير الشعري الخاص ولضرورة الوزن ، حيث كما قيل «يجوز في الشعر مالا يجوز في النثر»

وهنا قد يتساءل القارئ كيف نستطيع أن نميز التراكيب والمفردات الشعرية في أدب العراق القديم وقد مضى على النتاج الادبي الذي جاء الينا من القوم الوف كثيرة من السنين تبعدنا عن تفهم اذواق ذلك العصر اللغوية الأدبية ؟

إن هذا التساؤل يمكن ان يثار أيضاً بالنسبة الى اشعار الكثير من الامم القديمة الأخرى والاجابة عليه بالايجاز ان التعرف التام على تلك الحضارة والالمام باسرار اساليبها اللغوية واتباع منهج المقارنة بين الاساليب النثرية وبين الاساليب الشعرية كل هـذا يمكن الباحث المختص من ان يتميز ما بين الاسلوبين الشـعري والنثري الاعتيادي المستخدم في النصوص الكتابية الأخرى مما جاء الينا من مدونات حضارة وادي الرافدين . ولعل اوضح مثال نختاره لتوضيح هذا الامر الاستشهاد بنصوص وثيقـة تأريخية مشـهورة في تأريخ العالم ، هي شريعة حمورابي (١٧٩٢–١٧٥٠ ق.م) ، والسبب في هذا الاختيار اننا نجد الاسلوبين الشعري والنثري و هما مستعملان في الوثيقـة نفسـها . فكما هو معروف تنقسم هذه الشريعة الى ثلاثة اجزاء متميزة هي :

١– مقدمة الشريعة (Prologue)

٢– مواد الاحكام القانونية .

٣– خاتمة الشريعة (Epilogue) .

ففي الجزء الثاني ، أي القسم المخصص لمواد الاحكام ، نقف على اسلوب الصياغة النثرية من حيث الالتزام بقواعد تأليف الكلام وفق قواعد اللغة الاكدية في عصرها البابلي القديم (الألف الثاني ق.م) . ويجدر بنا أن نذكر بهذه المناسبة ان العرف الجامعي جرى على تدريس مبادئ اللغة البابلية للمبتدئين بتدريسهم هذه الشريعة من الناحية اللغوية حيث الانتظام والاطراد في التزام قواعد هذه اللغة.

وبالمقابلة مع الاسلوب اللغوي الخاص بقسم مواد الاحكام من الشريعة ، نجد لغة القسمين الآخرين اي المقدمة والخاتمة تختلف اختلافاً بيناً عن لغة القسم الأول لأنهما دونا بالاساليب الشعرية سواء كان ذلك في انتقاء الالفاظ الشعرية – وبعضها الفاظ قديمة – أم في فن التأليف وتركيب الجمل من تقديم وتأخير أم من ناحيـــة المعنى العام والتعبير الشعري المؤثر . وبعبارة أخرى ان مقدمة شريعة حمورابي وخاتمتها قد دونتا باسلوب النثر الادبي او الشعري الذي لايلتزم بالوزن والعروض ، كما لايتقيـــد بما ذكرناه من اســـاليب النظم او التأليف الشعري في وحدات كالبيت والبيتين والاربعة أبيات .

وبالاضافة الى ما استشهدنا به من مقدمة شريعة حمورابي وخاتمتها بكونهما نثراً شعرياً، خلف لنا أدباء العراق القديم نصوصاً أخرى في النثر الشعري او النثر الادبي تفوق في روعة اسلوبها وتعبيراتها المؤثرة ووصفها التصويري الكثير من القطع الشعرية الصرفة ، ومن قبيل هذه النصوص بعض ما يسمى بالنصوص الملكيـــة (Royal Inscriptions) ، ولا ســـيما حوليات الملوك واخبار حملاتهم الحربية . فقد حوى الكثير منها قطعاً ادبية اجمع النقاد على انها ، كما بينا ، من اروع ما خلفته الآداب القديمة في براعة الوصف والتعبير ، مثل وصف الاماكن والمشاهد الطبيعية كالجبال والغابات والاهوار والبوادي والصحاري والتصوير البارع لاحتدام القتال والمعارك واشتراك الآلهة في القتال في بعض تلك المعارك ، على غرار مانجده في الملاحم البطولية من الادب اليوناني . ولايسعنا في هذه المقدمة الموجزة ايراد تراجم لبعض هـــذه القطع الأدبية فنكتفي على ســـبيل الاســـتشهاد بذكر وصـــف احـــدى المعـــارك الواردة في كتابات الملك الآشوري « سنحاريب » (القرن السابع ق.م) ، وهو وصف يفوق في

روعته وبراعته شعر اسطورة الخليقة في وصف النزال ما بين الاله « مردوخ » والالهة « تيامة » . ونستشهد ايضاً بالوصف المؤثر الوارد في اخبار مايسمى بالحملة الثامنة للملك الآشوري سرجون (٧٢١–٧٠٥ ق.م) على بلاد ارمينية واذربيجان ووصف البوادي والصحاري ورهبتها وحيواناتها الوارد في اخبار حملات الملك الملك الآشوري اسرحدون (٦٨٠–٦٦٩ ق.م) على بعض القبائل العربية(١)

وقد اعتاد الملوك الآشوريون ان يصحبوا في حملاتهم الحربية ، بالاضافة الى المهندسين والآت الحرب والعربات الحربية الضخمة ، عدداً من الكتاب لتسجيل سير المعارك ، وان اولئك الكتاب الادباء المجهولة اسماؤهم الذين خلفوا لنا تلك القطع الا دبية الرائعة مما سميناه بالنثر الادبي او الشعري . وقد صور بعض هؤلاء الكتاب في المنحوتات الآشورية المشهورة التي مثلت الحملات الحربية وانتصارات الجيوش الآشورية . هذا ولم يتفرد الكتبة الآشوريون في براعة وصف المعارك والقتال ، فان زملاءهم من الكتبة البابليين خلفوا لنا ايضاً نماذج من النثر الشعري في تصوير زحف الجيوش واهوال السير واحتدام المعارك ، نذكر على سبيل المثال الحملة التي دونها الملك البابلي ، نبوخذ نصر الاول (١١٢٤–١١٠٣ق.م) في غزوه بلاد عيلام ، وقد دونت احداثها في ما يسمى احجار الحدود (كدورو)

(١) عن ترجمة الحوليات والحملات الحربية الآشورية راجع المصادر الاساسية التالية :–

1. pritchard (ed.), Ancient Near Eastern Texts (3rd,ed.1969)
2. Thureau-Dangin. Une relation de la huiutie me Campagne de Sargen .
3. Luckenbill, The Annals of Sennacherib
4. ————, Ancient Records of Assyria and Babylonia (1927)
5. C.Thompson, The Annals of Esarhaddon and Ashurbanipal

(kudurru) (١) ، وقد تضمن النص بالاضـــافة الى القطائـــع والامتيازات التي منحها هذا الملك الى أحد قواده المسمى « رِتّى – مردوخ » وصفاً ادبياً ممتعاً نقتبس منه العبارات التالية : «من دير (٢) ، مدينة الاله » آنو » المقدسة قفز مسافة ثلاثين « بيرو » (ساعة مضاعفة) وسار في الطريق في شهر تموز. لقد احترقت النصال وتوهجت كأنها النار . وتوهجت احجار الطريق كأنها الافران الحامية . جفت الآبار وترنح حتى الابطال الشباب . ورغم ذلك سار في الطريق قدماً الملك المختار ، المصطفى ، المسند من الآلهة . اجل ! حث الخطى نبوخذ نصر الذي لايضارعه أحد . . . »

• • •

---

(١) انظر :–

King, Babylonian Bondary Stones , (1912), No. 1v p.29ff

(٢) مدينة » دير » وتدعى ايضاً « دور – إيلو » مدينة شهيرة في تأريخ العراق القديم ، تقع بقاياها بالقرب من بدرة على الحدود العراقية – الايرانية (الحدود البابلية – العيلامية القديمة) ، وتعرف خرائبها باسم تلول العفر .

الموضوعات التي تناولها أدب العراق القديم وأشهر نصوص هذا الأدب

سبق أن نوهنا بأن أدب حضارة وادي الرافدين، سومرياً كان أم بابلياً، وبكلا نوعيه الشعر والنثر الادبي، قد تناول موضوعات عديدة كانت تشغل تفكير القوم في حياتهم العامة والخاصة مثل نظرتهم الى الكون والحياة وأصل الوجود والاشياء وآرائهم فيها ، والمجتمع الانساني ومشاكله وسلوك الفرد والقيم الاجتماعية ، وحياتهم الروحية والعاطفية ، ومشكلة الموت وما بعد الموت والخلود ، وقضية الخير والشر ، والعدل الالهي (Theodicy) مع وجود الشر ، الى غير ذلك من الموضوعات التي لاتقتصر أهميتها على أنها خير ما يصور لنا حضارة وادي الرافدين بجميع اوجهها ومقوماتها وفي ادوار ازدهارها وحيويتها وركودها وازماتها ، بل هي كذلك على قدر عظيم من الأهمية في تأريخ تطور الانسان ، لانها كما ذكرنا ، كانت أولى واقدم محاولات من نوعها في تأريخ النوع الانساني عبرت عن الخبرات الانسانية الأولى من بعد انتقال الانسان الى طور الحضارة والمدنية في وادي الرافدين ووادي النيل في مطلع الألف الثالث ق.م .

ولكن رغم ان هذا النتاج الادبي كان ، كما قلنا ، اقدم واول محاولة في تأريخ الآداب العالمية ، فان مما يعجب له بل يبعث الدهشة في القارئ الحديث ان يجد هذا الادب قد انتج قطعاً أدبية تتسم بالصفات المميزة للادب الاصيل المبدع مهما كانت المعايير التي تقاس بها ؛ وسيقف القارئ بنفسه على هذه الميزات من

النصوص الادبية التي سنعددها . ولكن قبل أن نبدأ بهذا الوصف ولكي يدرك القارئ المدى الواسع التي اشتملت عليه تلك الموضوعات نصنفها بحسب الابواب الرئيسة التالية :ـ

١ـ الخليقة واصل الوجود والاشياء :

ويأتي في مقدمة هذا الموضوع أصل الكون والآلهة والاشياء وخلق الانسان واصل العمران، ويدخل معظم هذه الموضوعات في علم الاساطير (Mythology) تحت المصطلحين : أـ اصل الكون (Cosmogony) ب ـ اصل الآلهة (Theogony)

٢ـ الملاحم واعمال الابطال والآلهة واشباه الآلهة، أي ما يصطلح عليه « أدب البطولة والملاحم ». (Epic literature)

٣ـ قصص الطوفان (Flood or Deluge Legends)

٤ـ اساطير ما بعد الموت او عالم الارواح او العالم الاسفل (Netherworld, Eschatology)

٥ـ أدب الحكمة (Wisdom Literature)، ويدخل في هذا الباب الحكم والامثال وموضوع الخير والشر وعدل الآلهة (Theodicy)

٦ـ أدب المفاخرة والمناظرة (Disputation) ، والحوار (Dialogue)

٧ـ أدب السخرية والفكاهة (satire) وقصص الحيوان (fables)

٨ـ ادب الرثاء ، ولا سيما رثاء تدمير المدن ومراكز العمران (Lamentation)

٩ـ أدب الغزل والحب

١٠ـ الصلوات والتراتيل والادعية والترانيم . (prayers, Hymns)

أساطير الخليقة وأصل الاشياء

١ـ اسطورة الخليقة البابلية :

جاءنا عن موضوع الخليقة وأصل الوجود والأشياء وخلق الانسان نصوص أدبية متعددة ومتنوعة ، بعضها باللغة السومرية وبعضها باللغة الأكدية ، ومن ادوار مختلفة في حضارة وادي الرافدين ، ولاسيما منذ مطلع الألف الثاني ق.م من العهد الذي اطلقنا عليه العصر البابلي القديم والذي تميز بما ظهر فيه من نشاط أدبي واسع في حقل التدوين والتأليف والترجمة من السومرية الى البابلية (١) . وكان موضوع الخليقة وأصل الاشياء في رأس القضايا التي شغلت تفكير القوم فعالجوها بالاسلوب « الاسطوري ـ الشعري » (Methopoetic) ونشأ عن ذلك آراء وعقائد متعددة ومختلفة .

ومما يقال عن اساطير الخليقة المدونة باللغة السومرية (٢) انها قصيرة والكثير منها ناقص غير كامل ، ولكن البابليين (الساميين) الذين اسهموا بنصيب وافر في بناء حضارة وادي الرافدين واخذوا الشيئ الكثير من التراث السومري (خلفوا لنا اطول واشهر قطعة أدبية عن هذا الموضوع وهي الاسطورة التي عرفت بين الباحثين باسم قصة او اسطورة الخليقة البابلية ، وتعرف أيضاً بعنوانها البابلي « حينما في

---

(١) عن خصائص هذا العصر الحضارية المهمة راجع ايجاز ذلك في كتابي : « مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة » الجزء الأول ، الطبعة الثالثة (١٩٧٣) .

(٢) سيرد ذكر المصادر الاساسية عن ترجمات هذه النصوص في اثناء كلامنا على النصوص المختلفة ، ويجدر ان نشير الى التراجم العربية في مجلة « سومر » المجلد الخامس (١٩٤٩) والمجلد السادس (١٩٤٩) والمجلد السابع (١٩٥٠، ١٩٥١) .

العلا » وباللغة البابلية « إينما إيليش » او « حينما عليش » (enuma elish) وقد يسميها بعض الباحثين «رقم الخليقة السبعة »(The Seven Tablets of Creation) لانها جاءت الينا مدونة بالشعر البابلي على سبعة الواح من الطين ، يحتوي كل لوح منها مابين ١١٥ و ١٧٠ سطراً او بيتاً من الشعر ، ومجموع ابياتها نحو الف بيت وقد عثر على معظم الواحها في مكتبة الملك الآشوري « آشور بانيبال » في نينوى ، كما وجدت اجزاء منها في مدينة « آشور » (قلعة الشرقاط) ، ووجد لها نسخ أخرى اقدم في المدن القديمة من بلاد بابل من العصرين البابلي القديم والبابلي الحديث . ويرقى زمن آخر تدوين لها الى اواخر العصر البابلي القديم واوائل العصر الكشي لعله مابين ١٤٠٠ و ١٥٠٠ ق.م . وتستند الاسطورة البابلية الى اصول سومرية اقدم عهداً . اما موضوعها الاساسي فانه يدور على تمجيد « مردوخ » إله بابل ، وتبرير تعاظم شأنه منذ آن صارت مدينة بابل عاصمة امبراطورية حمورابي الواسعة (١٧٩٢–١٧٥٠ ق.م) .

لقد نظمت الاسطورة شعراً ، كما قلنا ، ولكنها من الناحية الشعرية دون مستوى ملحمة جلجامش ، بل ان بعض القطع من النثر الادبي تفوقها في براعة التعبير وروعة التصوير ، وقد ضربنا مثلا لذلك بوصف بعض المعارك في اخبار الحملات الحربية الآشورية . ويرجح أن القصيدة كانت تتلى او ترتل بالحان خاصة إبان عيد رأس السنة البابلية (آكيتو) (Akitu) الذي كان يحتفل به اوائل شهر نيسان ، كما يحتمل انها كلها أو بعض مشاهدها كانت تمثل على هيئة مسرحية او دراما ولا سيما الاحداث التي تدور على تغلب الاله « مردوخ » على قوى الشر والعماء الممثلة بالآلهة العتيقة ، واحلال النظام في الكون ثم خلق الانسان ونشوء العمران .

وستتضح من الملخص الذي سنورده هنا عنها أهميتها البالغة في تأريخ حضارة وادي الرافدين من حيث عقائد القوم في اصل الوجود والآلهة وخلق الانسان ، بالاضافة الى أنها تصور جوانب مهمة عن احوال المجتمع من النواحي السياسية والاجتماعية ونظريتهم في اصـــل نظام الحكم والملكية ، واحوال البيئة الجغرافية وفوق هذا فللاسطورة اوجه أخرى من الأهمية عن العقائد الخاصة بالخليقة واصل الاشياء في الحضارات الأخرى القديمة . فقد اجمع الباحثون على وجود اوجه شبه اساسية واقتباسات كثيرة منها في عقائد الامم الأخرى ولا سيما العبرانيين كما جاء في التوراة ، وهناك مواطن شبه لايشك فيها في اساطير اليونان المتعلقة بأصل الكون والاشياء والآلهة .

ملخص الاسطورة :

لما كان يتعذر ايراد ترجمة كاملة للاسطورة في هذه الدراسة التمهيدية العامة عن أدب العـــراق القديم ، ولانني ساقدم دراســـات أخرى تتضمن ترجمات كاملة لاشهر النصوص الادبية كما فعلت في ملحمة جلجامش فاننا سنقتصر فيما يلي على ترجمة اجزاء مختارة منها وعرض الاجزاء الأخرى تلخيصاً (١) :

(١) اول من ترجم بعض اجزائها الباحث القديم « جورج سمث » في عام ١٨٧٦ بعنوان : « رواية التكوين الكلدانية » :

G. Smith, The Chaldean Account of Genesis (1876)

واعقب ذلك ترجمة الباحث الالماني « بيتر ينسن »

Peter Jensen, Die Kosmologie der Babylonier

ثم تعاقبت الدراسات والترجمات الأخرى نذكر من اشهرها :

Delitszch, Das Babylonishe Weltschöfungs Epos (1896)

ثم ترجمة انجليزية مع الفاظها البابلية ونصوصها المسمارية (المنشورة في CT,XIII

L. W. King, The Seven Tablets of Creation (1902)

S. Langdon, The Babylonian Epic of Creation (1923)

Deimel, Enuma Elish (936)

Labat, La poem babylonian de la Creation , (1936)

A. Heidel, The Babylonian Genesis (1942, 1951)

Speiser in Ancient Near Eastern Texts, (1950,1955,1969)

والى العربية في مجلة « سومر » (١٩٤٩).

« حينما في العلا لم يُنْبَأ عن السماء

« وفي الدنى (الاسفل) لم تذكر الارض باسم

« وحين كانت مياه أبسو »(الموجود الأول) ، والدهم

« والأم تيامة » والدة جميعهم ، واحدة مختلطة

« ولم يكن قد وجد أيُّ مرعى ولا يرى اي شيئ حتى هور قصب

« حينما لم يظهر الى الوجود أي من الآلهة

« ولم تذكر اسماؤهم ، ولا خصصت وظائفهم واقدارهم

« ثم وجد الآلهة في وسطهما (اي وسط أبسو وتيامة) :

« جاء الى الوجود « لَخْمُو » و « لخامو » ، ودعيا باسميهما

« وقبل ان يبلغا اشدهما ويطولا قامة

« جاء الى الوجود « أنشار » و « كيشار » ، وفاقاهما بسطة في الجسم

« ثم تعاقبت السنون وتلتها الايام

. . فجاء الى الوجود « آنو » ، بكرهم ووريثهم ومنافسهم

« أجل صار آنو « بكر أنشار » ، يضارع أباه

« ثم ولد « آنو » نودمند (إيا) شبيهه

« صار « نودمد » سيد آبائه

« كان واسع الفهم ، شديد الحول والقوة

« اجل اصبح اشد حولا من جده « أنشار »

« ولم يكن له مثيل آخر بين اخوته الآلهة

« كان الاخوة الاقداس يتجمعون معاً

« ويقلقون « تيامة » ، و يهاجمون حاميهم (أبو)

« اجل صاروا يعكرون بطن « تيامة » وهم في حركة وصخب في المسكن المقدس

« لم يستطيع « أبسو » ان يقلل من ضجيجهم

« أما « تيامة » فانها سكتت ولم تحرك ساكناً ازاء صنيعهم

« مع أن اعمالهم كانت مؤلمة ، وصنيعهم شائناً

« وعندئذ استدعى « أبسو » ابو الآلهة العظام،وزيره ممو » وقال له « يا ممو »

ياوزيري المطيب كبدي ، هلم نذهب الى تيامة »

« فذهبا الى « تيامة » وقعدا قدامها ، وتشاوروا في أمر الآلهة ، أبنائهم .

فتح أبسو فاه وقال لتيامة بصوت عال :

« لقد امرضتني اعمالهم

« فلا استطيع الراحة في النهار ولا النوم في المساء

لاقضين عليهم وأضع حداً لاعمالهم

لكي يعم السكون فنستطيع النوم »

ولما ان سمعت « تيامة » ذلك ، غضبت وصرخت بزوجها .

ادركت في قلبها ما يبيت من شر وخاطبت « أبسو » :

علام نخرب ما او جدنا نحن بانفسنا ؟

حقاً إن صنيعهم يسبب الالم والمرض ، ولكن لنصبر على ذلك ونتحمله عن طيب خاطر . (١)

ولكن «أبسو» وقد سانده وزيره « ممو » لم ينثن عن عزمه في القضاء على أبنائه من جيل الآلهة الحديثة ، ولما علم هؤلاء الآلهة بما بيّته لهم ابوهم من شر ودمار اضطربوا وجزعوا ، واخذ يتراكضون على غير هدى ؛ ثم هدأوا اخيراً واستكانوا

(١) تنتهي هنا الترجمة سطراً بسطر ، ويبدأ من هذا الموضع التلخيص والايجاز.

وجلسوا صامتين يائسين لايدرون مايفعلون للنجاة من الهلاك المحدق بهم . ثم انبرى من بينهم الاله « إيا » المتبحر في المعرفة والحكمة . فخط دائرة سحرية حول اخوته الآلهة ليحميهم من الهجوم والفتك ، وألف تعويذة سحرية قوية التأثير تلاها على « أبسو » فحل به في سبات عميق وشل عن الحركة ،فانتزع منه تاج الالوهية وجلالها ومجدها واستحوذ عليه ، ثم قتله وسجن وزيره « ممو » وابتنى في الـ « أبسو »(١) بيتا له وسكن فيه هو وزوجته «دام – كِنّا » ؛ وفي حجرة الاقدار والمصائر ولد ابنهما « مردوخ » ، وربي على الرضاعة من اثداء الالهات وسرعان ما شب واكتسب « جلال » الالوهية الصاعق المخيف ، وقوي عود جسمه وصار ثاقب النظر براق العينين حديدهما ، هائل الاعضاء والجوارح ، يعسر ادراكه على البشر ولا يمكن النظر اليه ،له « اربع عيون واربع آذان ، ينبعث اللهب حين تتحرك شفتاه واستطالت آذانه الاربع واتسعت عيونه الاربع ، فصار يرى كل شيء ، اكتسى بنور الالوهية واكتسب الجلال الذي يبعث الرعب » .

اما تيامة فانها لم تنس مقتل زوجها « أبسو » ،وحرضها على الثأر له بعض الآلهة العتيقة ، يتزعمهم « كنكو » ؛ فاستجابت « تيامة » للتحريض وعبأت جموعها واعلت من منزلة « كنكو » وجعلته زوجها ، وولدت مخلوقات غريبة مخيفة مثل الافاعي والتنانين الهائلة ؛ وعهدت الى « كنكو » قيادة جموعها وزودته بالواح الاقدار والمصائر . ولم يفطن الآلهة الحديثة الى مابيتته لهم امهم « تيامة » من شر إلا حين اوشكت على الهجوم . ولما ادرك الاله « إيا » الهلاك المحدق بجيل الآلهة الحديث تملكه اليأس والرعب ، ولما ان زال اضطرابه قصد جده « انشار » وابلغه ما عزمت عليه « تيامة » ؛فحرض « انشار » حفيده « إيا » على

(١) اعتقدوا في « أبسو» انه كان الها وفي الوقت نفسه المياه الأولى ومياه العمق، ولذلك سمى معبد الاله « إيا » بيت العمق أي « إي – أبسو » .

أن يتصدى لنزالهما ،ولكن البطل « إيا » الذي قضى على « ابسو » جبن واحجم عن التقدم ؛ ثم طلب « انشار » من الاله « آنو » ان يكون رسول مصالحة وسلام الى « تيامة »، فذهب ولكن لم تنجح محاولته السلمية معها وعاد يملكه الرعب ، وعندئذ عم الخوف والوجوم جميع الآلهة ، وعقد الصمت لسان « انشار » ؛ وجلس معه الآلهة وهم صامتون خائفون وبينما كان آلهة السماء في هذه الازمة العصيبة عنت لانشار فكرة سعيدة اذ تذكر مايتصف به احد احفاده وهو « مردوخ » من بسالة ومهارة ،فاستدعى « ايا » ابنه « مردوخ » واعلمه بخطة الآلهة . فقبل مردوخ الاضطلاع بهذا الدور الجسيم ، ولكنه طلب جزاء ذلك ان يتبوأ السلطة العليا المطلقة على جميع الآلهة ، فوافق على ذلك ابو الآلهة « انشـــار » ؛ولكن لما كان منح « مردوخ » تلك الســـلطة خارج صـــلاحيته اقتضى الامر دعوة الآلهة الى عقد مجلس الشورى ، فاستدعى الآلهة للاجتماع ولما انتظم عقدهم قبّل أحـــدهم الآخر ، وقبـــل أن يتشاوروا في الامر جلسوا الى وليمة عامرة ، اكلوا فيها وشربوا فذهب عنهم خوفهم وانشرحت صدورهم بتأثير الخمر الجيد الذي احتسوه . وبعد ان فرغوا من الوليمة اقاموا منصة لمردوخ ؛ فجلس عليها الأله الشاب قدام آبائه واجداده ليتسلم منهم السلطة إذ اجمعوا على نقل سلطاتهم وزعامتهم اليه ، وفوضوه تقدير المصائر والاقدار واعلوا سلطانه وجعلوه يضاهي سلطان « آنو » وارادته لاترد ولاتبدل ، وتوّجوه ملكاً عليهم وعلى جميع الكون ولكي يطمئن الآلهة الى ان «مردوخ» حصل على هذه السلطة المطلقة وضعوا في وسطهم رداء ، ولما ان فاه مردوخ بكلمة منه اختفى الرداء ،

وبكلمة أخرى نطق بها عاد الرداء ،(١) ولما ان تحقق الآلهة من اكتساب مردوخ القدرة المطلقة هتفوا قائلين : « حقاً إن مردوخ ملك » ! وقدموا له الخضوع والولاء بصفته ملكهم ، وقلدوه شارات الملوكية: الصولجان والتاج والجلباب ؛ وقلدوه السلاح الذي لا يقهر ، وحرضوه على قتال « تيامة » فأخذ الاهبة للنزال الرهيب وصنع لذلك قوساً وسهماً وكنانة وامسك هرواة بيده اليمنى وساق العاصفة والبرق امامه ، واحاط جسمه بنور وهاج ، وهيأ شبكته ، فحملتها له الرياح الاربع واهاج عواصف الامطار ، وركب مركبته « العاصفة الرهيبة » تجرها اربعة مخلوقات مخيفة هي : « المدمر » و « القاسي » و « المحطم » و « الطائر » . وكان يلبس درعاً من الزرد . ولما ان اقترب من جموع « تيامة » بقيادة «كنكو» صعقت من جلال الوهيته المرعب ومنظره الرهيب واسلحته الفتاكة فهربت ، ولكن تيامة ثبتت امامه واخذت تقذفه بالسباب والشتائم ولما ان تقدمت لمبارزته نشر شبكته واصطادها بها ، ولما فتحت فاها لا بتلاعه ساق في فمها الريح الشريرة فمنعها من اطباق شفتيها ، وسلط عليها الرياح الأخرى فانفتح جسمها وعندئذ بادرها بسهم رشقه في فمها الفاغر ، فاصاب قلبها (٢) وقضى عليها ووقف على جثتها منتصرا . ولما ان رأى بقيةاتباعها منالآلهة نتيجة المعركة هموا بالهرب ولكن مردوخ

---

(١) من الباحثين من يرى أن سبب وضع الرداء كان لامتحان قوة « مردوخ » السحرية ، ولكن توجد اعتبارات فنية أدبية بالاضافة الى الناحية السحرية . فقد ادخل ناظم القصيدة نوعاً من الصناعة اللفظية ولاسيما الجناس اللفظي المشتمل عليه اسم « مردوخ » الذي يكتب بمقطعين من العلامات المسمارية ، يعنى المقطع الأول وهو « مار» او « أمار » ، بالاضافة الى « ابن » ؛ وضع ، خلق افنى . ويعنى المقطع الثاني « دوك » رداء اولبس رداء .

(٢) حول اوجه الشبه بين قتال مردوخ لتيامة وبين ماورد في التوارة (سفر حبقوق ، الاصحاح الثالث) انظر البحث الآتي .

W.A. Irwin, "The Mythological background of Habakkuli chap.3" in Journal of Near Eastern studies, xv, (1956), 47ff

لم يدع احداً يفلت منهم حيث اسرهم وسجنهم وانتزع من قائد جموعها « كنكو » لوح الاقدار وختمه بختمه وعلقه في صدره ، ثم عاد الى جثة « تيامة » ففلق رأسها بهراوته الضخمة وقطع اوردة دمها ، وجعل الريح الشمالية تحمـــل دمها الى الجهات الجنوبية النائية ، ثم شطر جثتها الضخمـــة شطرين خلق منهما الكون ، إذ جعل من نصفها الاعلى السماء ، ومن نصفها الاسفل خلق الارض ، وعين للآلهة العظام « آنو » و « انليل » و « إيا » الاجزاء التي يحكمونها من الكون .

ولما ان تم ذلك لمردخ ارتآى ان يوجد مخلوقا سمي الانسان من اجل أن « يخدم الآلهة » ، واعلن عن عزمه لابيه « إيا » ، فحبذ له ذلك واشار عليه ان يضحي أحد الآلهة لذلك الغرض ، فقرر الآلهة في مجمعهم أن يكون ذلك الاله « كنكو » لانه هو الذي حرض « تيامة » على محاربة الآلهة وقاد جموعها فامسك به مردوخ واوثقه وجاء به الى « إيا » ، فذبحه ومن دمه «خلق الانسان» (١) ، وفرض « إيا » على هذا الانسان « خدمة الآلهة » ليريحها من العناء والتعب . وقسم مردوخ من بعد ذلك مجموعة آلهة الـ «انوناكي» المائة الى مجموعتين مجموعة للسماء ومجموعة للارض وعرفاناً بفضل مردوخ وبطولته في تخليص الآلهة من الهلاك عمل آلهة الانوناكي طوال عام واحد في تشييد بيت يليق بمقامه فاقاموا معبده العظيم « إي ــ ساكلا » مع برجه في مدينة بابل من بعد أن أسسوها ، وخصصوا في المعبد مزارات لأنليل و « إيا » . وبعد ان تم ذلك اجتمع الآلهة في حفل ووليمة عزفت فيها الموسيقى وقدمت الجعة ، ورتل بمديح مردوخ وتمجيده ، وتنازلوا له عن اسمائهم والقابهم فصار له خمسون اسماً . وتنتهي القصيدة باللوح السابع الذي قلنا إنه كان يرتل تمجيداً لمردوخ في عيد رأس السنة البابلية .

(١) في اساطير أخرى عن خلق الانسان في حضارة وادي الرافدين ان الخلق كان من الطين ومن دم أحد الآلهة لكي تدب في الطين الحياة ، وسيرد ذكر هذه الاساطير .

ويجدر أن نذكر في ختام هذا الملخص لاسطورة الخليقة البابلية ان روايتين موجزتين وردتا عنها في الكتابات اليونانيـــة ، احداهما للفيلسوف السوري — اليوناني الملقب بالدمشقي (Damacius) المولود في دمشـــق في حـــدود ٤٨٠ ميلادية (وكان آخر فلاسفة الافلاطونية الحديثة) . وان روايته خلاصة موجزة للاسطورة البابلية وقد عنونها : «مشاكل المبادئ او العناصر الأولى وحلها» : (Diffuculties and Solution of First principles)

والرواية الأخرى للمؤرخ البابلي « بيروسس » (Berossus) ، كاهن الاله مردوخ في بابل الذي دون تأريخاً لبلاد بابل باليونانية في حدود سنة ٢٧٥ق.م (في العهد السلوقي) ، وقد ضاع مؤلفه ولكن مقتبسات مهمة منه وردت في كتابات بعض الكتاب الكلاسيكيين ، ومنها موجز لاسطورة الخليقة البابلية وردت في كتابات الراهب اليوناني في القسطنطينية «سنكيلوس » (Syncellus Synkellos) (من اهل القرن الثامن الميلادي) ، وقد اقتبسها بدوره من كتاب يونانيين سابقين لاسيما من كتاب تأريخ الكنيسة للمؤرخ «يوسيبيوس» (Eusebius) (من اهل قيصرية ، مابين القرنين الثالث والرابع الميلاديين) ، وقد اقتبسها هذا عن المؤرخ «اسكندر بوليهستر» (Alexander Polyhistor) (القرن الأخير ق.م)[1] .

بعض الملاحظات والاستنتاجات :

نترك للقارئ ماقد يستنتجه من آراء من اسطورة الخليقة التي لخصناها ؛ فهناك جملة مجالات للوصول الى آراء مختلفة تنطوي عليها الاسطورة وما قد يطبقونه من نظريات وتفسيرات تختلف باختلاف المدارس المتنوعة في تفسير الاساطير .

---

(١) انظر :
A.Heidel, The Babylonian Genesis, (1942,1951), 75ff.

مما لايتسع المجال لايرادها ، فنكتفي بالملاحظات الشخصية التالية :ـ

١ـ يوجد تشابه وتناظر واضحان مابين اسطورة الخليقة البابلية وبين رواية التوراة عن الخلق والتكوين (سفر التكوين ، الاصحاح الأول : ١ـ٢ والاصحاح الثالث) ، فكلا المصدرين يشير الى ان الكون لم يكن فيه في البدء من شيء سوى العماء أو (Chaos) المؤلف من المياه الأولى . وتتشابه الكلمتان المستعملتان لهذا العماء أو المادة الأولى في كلا المصدرين(١)

وكانت المادة الأولى في الاسطورة البابلية مؤلفة من عنصرين :

(١) الماء العذب (أبسو ، وهو العنصر المذكر) (٢) والماء الملح (تيامة العنصر المؤنث) ، وقد جسم العراقيون القدماء هذين العنصرين وجعلوهما إلها (أبسو) والهة (تيامة) ، وكانت مياههما واحدة مختلطة ، ومنهما ولدت الآلهة الأخرى وجاءت جميع الأشياء . فتكون المادة الأولى عند البابليين ذات طبيعة ثنائية : اذ كانت مادة والها في الوقت نفسه ، اى ان المادة كانت ازلية وجدت منذ البدء ولم تخلق . وهنا نجد اختلافاً جوهرياً مابين العقيدة البابلية وبين عقائد الاديان السماوية ، ولاسيما ماجاء في التوراة والقرآن الكريم ، حيث وجود الخالق ازلي سبق وجوده المادة وهو اوجد المادة .

٢ـ في وسعنا أن نستنتج من وراء الغلاف الاسطوري لرواية الخلق البابلية احوال العراق القديم الجغرافية في بداية ظهور اولى الحضارات في السهول الرسوبية منه في المراحل الأولى من استيطانها . فالمياه الأولى والصراع والاحتراب مابين جيل الآلهة الحديثة بزعامة « مردوخ » وبين جيل الآلهة العتيقة الممثلة بابوي الآلهة الأولين « أبسو » و « تيامة» (اللذين قلنا إنهما يمثلان المياه الأولى) وتغلب مردوخ

(١) في الاسطورة البابلية « تيامة » او « تهامة » وفي التوراة « تيهوم » .

عليهما ثم احلال النظام في الكون بدلا من العماء والفوضى ، وخلق الكون والانسان واقامة العمران ـ كل هذا وغيره يصور لنا صراع العراقيين الأوائل مع بيئتهم الطبيعية والسيطرة عليها وبناء الحضارة . فان السهول الرسوبية التي نشأت فيها أولى الحضارات إن لم تكن مغمورة بمياه البحر بحسب النظرية القديمة والا فبمياه الاهوار والاحراش الناجمة عن فياضانات الانهار ، ثم استطاع الانسان بمرور الازمان ان يسيطر على هذه ا لاحوال الطبيعية بما اقامه من سدود ونظام للري .

٣ـ وعلى ضوء المبدأ السائد في العقائد الدينية عند العراقيين القدماء من ان مجمتع الآلهة صورة للمجتمع البشري حسب المبدأ المعروف بالتشبيه (Anthropomorphism) في عزو صفات البشر المادية والروحية الى الآلهة ، يستطيع القارئ ان يصل الى استنتاج مهم آخر ، هو ان هذه الاسطورة تصور لنا أيضاً بالاسلوب الاسطوري الاحوال السياسية والاجتماعية في العراق القديم في اولى مراحل تكوينه الحضاري حيث كان نوع من نظام الحكم يصح أن نطلق عليه مصطلح « الد يمقراطية البدائية » (Primitive democracy) ؛ إذ تصور الاسـطورة الكون على هيئة دولة يحكم فيها الآلهة حكماً شورياً كانت القرارات فيه تتخـذ في مجالس شورى بطريق الاقتراع ، كما حدث في تنصيب مردوخ ملكاً على الآلهة عن طريق الانتخاب ، ولعل هذا اصل الحكم ونظام الملوكية . والطريف ذكره بهذا الصدد ان الالهات ، مثل « عشتار » ، كن يصوتن في مجالس شورى الآلهة . وان نظام الحكم لم يكن من اصل النظام الكوني ، بل ظهر بصورة طارئة ابان تلك الازمة التي حلت بالآلهة ، وهي الحرب مابين الآلهة الحديثة وبين الآلهة العتيقة ونشوء ضرورة القيادة الحربية .

وثمت امر مهم آخر نستنتجه من هذه الاسطورة ، ذلك هو العنف والصراع اللذان رافقا عملية الخلق والتكوين – وهذا انعكاس من العنف الذي تتميز به البيئة الطبيعية التي ظهرت فيها حضارة وادي الرافدين . على ان المتتبع لاساطير الخليقة في حضارة وادي النيل يقف على عكس هذه الصورة حيث تمت عملية الخليقة بهدوء وسلام .

٤– هذا ولا يسعنا الاسترسال في ذكر التفسيرات الأخرى المختلفة التي ارتآها الباحثون المختلفون ، فنكتفي في ختام هذه الملاحظات بالتنويه بان احد هـــذه التفاسير يســـتند الى المذهب « الفرويدي » في التحليل النفسي في تعليل النزاع والاقتتال ما بين جيل الأبناء من الآلهة وجيل الآباء منهم بالعقدة المشهورة التي يطلق عليها فرويد « عقـــدة اوديب » ومع أننا لسنا متحمسين لهذا التفسير الا ان موضوع قضاء الأبناء من الآلهة على آبائهم يتكرر وروده في اساطير كثير من الحضارات القديمة ، مثل الحضارة اليونانية حيث قضى « كرونوس » على ابيه « اورانوس » ، وتغلب « زوس » على أبيه « كرونوس » على ماهو معروف في الاساطير اليونانية .

* * *

وسنحاول في الاعداد المقبلة من هذه المجلة عرض نماذج أخرى من النصوص الأدبية التي وصلت الينا من العراق القديم .

طـــه باقـــر